المتنبي

من الكوفة الى الكوفة

تأليــف

الأستاذ الدكتور محمد تقي جون

اليوم أكملتُ الكتاب

وأعلن انتصاري:

على قلة وقت الكتابة

على كثرة الانشغالات

على انقطاع الكهرباء

على تعليق الكومبيوتر

على عيوني المتعبة

على سوفان الرقبة

على داء السكري

على الذكاء الاصطناعي

على الهمَّة أو الرغبة أو (الواهس)

على خيبتي بـ(٢٠) مؤلَّفاً بلا فائدة

على يأسي من الجدوى

على ترددي بين الفرار او الاستمرار

إهداء

الى المتنبي

اتخذتُه خليلا منذ الاول المتوسط، حيث تعرفت اليه من خلال ديوانه، فكان يشبهني في كثير من الصفات الشخصية والعراقية. ومعلّماً علَّمني الشعر فكتبته صدى لشعره، وحبَّبَ الي العربية فبلغت فيها مبلغَ الفصحاء الأوائل، وألَّفت فيها الكتب المتفردة. وقد وضعتُ هذا الكتاب عنه وهو أدق كتاب عنه، وكأنني من قوة ارتباطي به وأُلفتي اياه ومعرفتي به، قرأته عليه فأثبتُّ ما وافق عليه وحذفتُ ما رفضه.

على سجونٍ أبيَّاً يُغدى به وَيُرَاحُ
قد ضاق بالـ(سيفِ) مجداً فشجّه مفتاحُ
وبـ(الكويفير) حُلماً فهاضَ منه الجناحُ
وضاق ضيفاً مخوفاً قِراه أن لا بَراحُ
فاستنفرَ الليلَ خيلاً حتى انتضاه الصَّباحُ
ليستريحَ وأنّى لمثله مستراحُ
إنْ يُغمدوه بأرضٍ له السماواتُ سَاحُ
يا أيها المتنبّي أنت العُلى والطِّماحُ

﴿ خرج المتنبي من الكوفة لا يعرف وجهته تماماً، وبعد رحلة عمر محفوفة بالطموح والاخفاق، عاد الى الكوفة لا يعرف وجهته تماماً ﴾

المقدمة

لعلّي في هذه السطور القليلة، قياساً الى ما كتب عن المتنبي، أعطي خلاصة القول في المتنبي شاعراً وشعراً. الجديد الذي جئت به أنني استنطقت المتنبي نفسه فأجابني بشعره، وشعرُهُ هُوَ (ولم يعرف الا صادقاً).

هدفتُ في دراستي الى وصف شخصية المتنبي الحقيقية والوقوف على صادق أخباره من خلالها، ووصف شعره وتقييمه في شعر عصره العباسي، والشعر العربي الى اليوم.

النتائج التي خلصت اليها اذا كانت معروفة فهي مُدقَّقة مُصَّدقة، وأكثرها غير معروفة أو تبدو غريبة، ولكنها الحق المستخلص من شعره والتأني في قراءته، ومعرفتي بالشاعر ومعايشته. ويبقى شعر المتنبي أفضل راوٍ له وأوضح دالة عليه.

حينما كنتُ في الاول المتوسط، اشترى لي والدي (رحمه الله) ديوان المتنبي! فبدأت أقرؤه. ولم يُتح لي في تلك الحقبة المتقدمة من عمري، وأنا لا أعرف العربية الفصحى، ولا أساليب تعبيرها، ولا أسس الفن الشعري، أن أستوعب المتنبي شعرا وشاعرا، بل قرأته بروحي التي أحسَّت به قريبا جدا منها قرابة غريبة. ودلتني اشعاره التي قرأتها على معرفة دقيقة مفصلة لشخصيته، والتوغل شيئا فشيئا الى اسرارها فأحطت بدقائقها، وصرت أعرف ما كان يفكّر له، ويحسُّ به، وما فعله حقاً، وما يمكن أن يفعله او لا يفعله. وما زال يقوى المتنبي ويتكامل في نفسي وعقلي حتى صرت أعيشه حيا يتجول معي ويحل حيث أحل، ولم يفارق نفسي وعقلي وأنا أتقدم في معرفة اللغة العربية الفصحى التي هو حببها لي، وأتقدم في عالم الشعر دراسة وتأليفا، فاجتمعت لدي الدراستان الروحية والادبية، فصرت على يقين بأني افضل من يعرف المتنبي ويفهم شعره.

وبعد رحلتي الطويلة في دراسة الادب بشكل عام، وشعر المتنبي بشكل خاص ببحوث غطت كل جوانب شعره، وقبلها دراستي اياه في رسالة الماجستير واطروحة الدكتوراه، وجدتُ لزاما عليَّ أن أكتب (كلمة الفصل) في المتنبي شاعرا وشعرا، بدراسة شاملة تحوّل كل المفاهيم الى مسلمات بغية استيعاب المتنبي من الدارسين والمطلعين.

الاستاذ الدكتور

محمد تقي جون

القسم الاول- الشاعر

ملخـــص

كان المتنبي – كما يُظهر شعره وسيرته – متفردا، متغربا، مظلوما. وبهذه الصفات رأى المتنبي نفسه في جيله حين خاطبهم قائلا:

ما مُقامي بِأَرضِ نَخلَةَ إِلّا كَمُقامِ المَسيحِ بَينَ اليَهودِ
أَنا في أُمَّةٍ تَدارَكَها اللَـــــــــهُ غَريبٌ كَصالِحٍ في ثَمودِ

تفرَّد المتنبي بين جيله بكونه شخصية فذة لا نظير لها. فقد جمع القوة والرجولة، والجراءة والبطولة، وبُعد الهمة، وضخامة الطموح. لقد نهض من رماد الفقر والخمول الى فينيق الثورة العارمة. ان الذي يختصر المتنبي هو طموحه الى الملك، وهذا جعل الملوك يخافونه فهو (مسْعَر حرب ورجل ثورات وانقلابات)، وقد كان يتقلب بين الثائر والانقلابي حتى نفض يديه من طموحه أن يكون ملكا، الذي صرّح به عند كافورا جهرة:

فَارِمِ بي ما أَرَدتَ مِنّي فَإِنّي أَسَدُ القَلبِ آدَمِيُّ الرُواءِ
وَفُؤادي مِنَ المُلوكِ وَإِن كانَ لِساني يُرى مِنَ الشُعَراءِ

والمتنبي خلق بروح ملك، ولو أعطي الملك لما اهتم بالشعر هذا الاهتمام، ولا عرف به. فنراه حين استسلم الى اليأس من الملك، ينزع ثوبه الشعري (المبدع) ويُبقي منه ما يستره أديباً فقط. ومشروعه (إصلاح الأمة واعادة رقيّها)، بإزالة الدويلات الصغيرة والحكام الصغار، وبناء دولة عربية بحاكم عربي قويّ. ورأى الحكام نوعين: عربا ضعفاء، وعبيدا موالي ترقوا الى درجة الملوك، وهو من مهازل الزمن، فقال في الصنف الاول:

أَرانِـــبُ غَيـــرَ أَنَّهُـــمُ مُلـــوكٌ مُفَتَّحَةٌ عُيونُهُمُ نِيامُ
أُســيرُها بَــينَ أَصــنامٍ أُشــاهِدُها وَلا أُشاهِدُ فيها عِفَّةَ الصَنَمِ
ولا أعاشر من أملاكهم أحداً إلا أحق بضرب الرأس من وثن

وقال في الصنف الثاني:

وإنمــا النــاسُ بــالملوكِ، وَمــا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ

لا أدبٌ عنـــدهُمْ ولا حَسَـــبٌ ولا عُهُـــودٌ لَهُـــم ولا ذِمَـــم
بكـــل أرضٍ وطِئْتُهـــا أُمَـــمٌ تُرْعَى بعَبْدٍ كأنها غَنَمُ
يستَخْشِـنُ الخَـزَ حـين يَلْمُسُـهُ وكان يُبْرَى بظُفْرِهِ القَلَمُ
ساداتُ كـلِّ أنـاسٍ مـن نفوسـهُمُ وسـادةُ المسلمين الاعبـدُ القـزمُ

ونلمس روحه الثائرة بأناشيده الثورية التي تعيد في شيخوخة اجيال الخنوع والاستسلام شباب المجد والحرية والانتصار من الظالمين الى أبد الدهر:

عِش عَزيـزاً أَو مُـت وَأَنـتَ كَـريمٌ بَينَ طَعنِ القَنا وَخَفقِ البُنودِ
فـــرؤوسُ الرِّمـــاحِ أذهَـــبُ للغـــيْظِ وأشـــفَى لغِـــلّ صـــدرِ الحَقُـــودِ
لا كمـا قـد حييـت غيـر حميـدٍ وإذا مت، مت غير فقيدِ
يقتـــل العـــاجز الجبـــان وقـــد يعجـــزُ عـــن قطـــعٍ بُخنـــقِ المولـــودِ
وَيُـــوَقّى الفَتـــى المِخَـــشُّ وَقَـــد خَـــوَضَ فـــي مـــاءِ لَبَّـــةِ الصِـــنديدِ
فاطلـبِ العـزَّ فـي لظـى وذرِ الـذلَّ ولـو كـانَ فـي جنـانِ الخلـودِ!

وكان المتنبي يتمتع بنقيض كل الصفات السيئة التي وصموه بها، فقد أصر اعداؤه في العراق على أن يكتبوا سيرته ويجمعوا شعره لينتقموا منه ومن مجده الشعري. فهو شجاع وليس جبانا، وهو كريم النفس وليس بخيلا، وهو صاحب مبدأ وليس يمدح على المال، وكان يطلب الملوك ليجعل (رؤوسهم بلا تيجان أو تيجانهم بلا رؤوس)، وليس صانعا للطواغيت. وهو ودود متواضع يحب الناس، وليس مغروراً متعجرفاً.

وعاش المتنبي غريبا متغربا منذ ولادته في أسرة مدقعة الفقر خاملة الذكر، فتبرم بالحياة ورفض أن تستمر على هذه الوتيرة، فقرر وهو صغير: (إما موت مشرّف أو ثراء مترَف):

اذا لَم تَجِد ما يَبتُرُ الفَقرَ قاعِداً فَقُم وَاِطلُبِ الشَيءَ الَّذي يَبتُرُ العُمرا
هُما خَلَّتانِ ثَروَةٌ أَو مَنِيَّةٌ لَعَلَّكَ أَن تُبقي بِواحِدَةٍ ذِكرا

لقد كان الفقر الدافع الوحيد لسفره في بقاع الارض وتغربه القسري من أجل المجد، ولو كان غنيا نابه الذكر لتغيرت خارطة مسيرته بالكامل:

تَغَرَّبَ لا مُستَعظِماً غَيرَ نَفسِهِ وَلا قابِلاً إِلّا لِخالِقِهِ حُكما
وَلا سالِكاً إِلّا فُؤادَ عَجاجَةٍ وَلا واجِداً إِلّا لِمَكرُمَةٍ طَعما
يَقولونَ لي ما أَنتَ في كُلِّ بَلدَةٍ وَما تَبتَغي ما أَبتَغي جَلَّ أَن يُسمى

وكان بقاءُ الذكر أو (الخلود) هدفَه الاخر وهذه غربة أكبر؛ لانَّ أسرته خاملة تعيش يومها الهامشي فقط، فكان يعيش واقعا مراً ويموت مجدا وكبرياء:

(ذِكرُ الفَتى) عُمرُهُ الثاني، وَحاجَتُهُ ما قاتَهُ، وَفُضولُ العَيشِ أَشغالُ

فالشهرة وبقاء الذكر عمر الانسان الثاني بعد عمره الاول المنتهي بالموت.

وَتَركُكَ في الدُنيا دَوِيّاً كَأَنَّما تَداوَلُ سَمعَ المَرءِ أَنمُلُهُ العَشرُ

أي تترك في حياتك وبعد موتك ذكرا مدويًا يشبه الضجيج الذي يتركه في الاذن تتابع اصابع الكفين عليها.

وكما عاش المتنبي الغربة مع الامراء والملوك، عاش الغربة مع حاشية كل منهم بسبب إبائه وكبريائه، فكانوا بين الاعجاب والتقدير والخلاف والصدام، وحسدوا مكانته عند الامير وجدُّوا في الإيقاع به. مما أثر في علاقته بالبلاطات التي زارها. وفي (قصيدة العتاب) بعد ان غيّر الاعداء والحاسدون سيف الدولة وأوغروا قلبه عليه، وكان لا يطيق بعاده وعدم انشاده المدح فيه، وقف المتنبي يُنشد الشعر ويَنشد اعادة المودة في قلب الامير، ويزايد المتشدقين على حبه وتقديره لسيف الدولة:

واحَرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ
مالي أُكَتِّمُ حُبّاً قَد بَرى جَسَدي وَتَدَّعي حُبَّ سَيفِ الدَولَةِ الأُمَمُ
إِن كانَ يَجمَعُنا حُبٌّ لِغُرَّتِهِ فَلَيتَ أَنّا بِقَدرِ الحُبِّ نَقتَسِمُ
قَد زُرتُهُ وَسُيوفُ الهِندِ مُغمَدَة وَقَد نَظَرتُ إِلَيهِ وَالسُيوفُ دَمُ
فَكانَ أَحسَنَ خَلقِ اللَهِ كُلِّهِمِ وَكانَ أَحسَنَ مافي الأَحسَنِ الشِيَمُ

فانبرى ابو فراس يعترضه، ويرد كل بيت يقوله الى شاعر قديم اشارة الى انه سرقه منه، والمتنبي يقرأ غير مبالٍ به ، ولما وصل الى قوله:

يا أَعدَلَ الناسِ إلّا في مُعامَلَتي فيكَ الخِصامُ وَأَنتَ الخَصمُ وَالحَكَمُ

قال ابو فراس بصوت عال: هذا بيت قاله شاعر قبله. فغضب أبو الطيب غضبا شديدا. وهنا انقلب المجلس الى مسرح ليس فيه متفرجون غير سيف الدولة، والكل مشتركون في التمثيل العدائي للمتنبي، أبو فراس يعيبه ويتعالم عليه، وابن خالويه يشاجره ويغري به، والسامرّي يطالب بدمه، وجماعه تصيح، وأخرى تفتعل النقمة عليه ليرى سيف الدولة صفحة وجوهها المتملقة. فوقف المتنبي بكل ثبات وقوة وراح ينشد ارتجالا (خارجا عن النص) أبياتا هي اشهر ما قاله في الفخر والاعتداد بالنفس:

سيَعلَمُ الجمعُ ممَّن ضمَّ مَجلسُنا بأَنَّني خيرُ مَن تسعى بهِ قَدَمُ

أنا الذي نظَرَ الأعمى إلى أدبي وأَسْمعَت كلماتي مَن بهِ صَمَمُ

أنامُ مِلْءَ جُفُوني عن شوارِدِها ويَسْهَرُ الخلقُ جرَّاها وَيَختَصِمُ

الخيلُ والليلُ والبيداءُ **تَعْرِفُني والسيفُ والرمحُ** والقرطاسُ **والقَلمُ**

فضجَّ المجلس واضطرب وزادوا في الوقيعة به، وغضب سيف الدولة من مغالاة المتنبي في مدح نفسه، فضربه بمفتاح كان بيد (والمفتاح كان في ذلك الوقت كبيرا بطول الذراع) فشج جبينه. فقال المتنبي على الفور:

إنْ كانَ سرَّكمُ ما قال حاسدُنا فما لجُرح إذا أرضاكُمُ ألَمُ

والحسد انعكاس ونتيجة حتمية لفرادة المتنبي، كان يعيشه اينما حلَّ، ومن أي قوم واشخاص حالل. لذا سمى ابنه (محسَّدا)، وهو أكثر من ذكر الحسد في شعره ولاسيما حسد الناس اياه.

وَما كَمَدُ الحُسّادِ شَيئاً قَصَدتُهُ وَلَكِنَّهُ مَن يَزحَمِ البَحرَ يَغرَقِ

أَزِل حَسَدَ الحُسّادِ عَنّي بِكَبتِهِم فَأَنتَ الَّذي صَيَّرتَهُم لِيَ حُسَّدا

سِـــوى وَجَـــعِ الحُسّـــادِ داوِ فَإِنَّـــهُ إِذا حَلَّ في قَلبٍ فَلَيسَ يَحوَّلُ
وَلَكِنّـــي حُسِـــدتُ عَلـــى حَيـــاتي وَمـــا خَيـــرُ الحَيـــاةِ بِـــلا سُـــرورِ
أَكـــارِمٌ حَسَـــدَ الأَرضَ السَـــماءُ بِهِـــم وَقَصَّرَت كُلُّ مِصرٍ عَن طَرابُلسِ

وعاش المتنبي الغربة منذ ترك بلده العراق وبلدته الكوفة. وأصبحت الغربة لا تطاق عندما نفض يديه من طموحه، وصار تقبلها بلا مبرر. ففي مصر (بلد خيبته) جثمت على صدره كوابيس الغربة، فكافور حبسه، والمصريون لا ينسجم او ينسجمون معه، وليس أحد من اهله معه حتى ابنه محسَّد تركه في الكوفة ولم يصحبه معه. فقال منسربا منه الشعر مستوحشا حزينا:

بِمَ التَعَلُّلُ؟ لا (أَهلٌ) وَلا (وَطَنٌ) وَلا (نَديمٌ) وَلا (كَأسٌ) وَلا (سَكَنُ)

وهذه أول مرة يحس غربة خانقة، ويطلب وطنا وسكناً، وكما قال أبو حيان التوحيدي (لقد كان وصفه وصف رجل لحقته الغربة فتمنى أهلاً يأنس بهم، ووطناً يأوي إليه، ونديماً يحل عقد سره معه، وكأساً ينتشي منها، وسَكَناً يتوادع عنده).

وكانت غربته أكبر في مرحلته الاخيرة (في العراق) مع الشعراء والعلماء كالوزير المهلبي، وابن حجاج، وابن لنكك، والصاحب بن عباد، والحاتمي وغيرهم من قرود الثقافة والادب؛ فهارشه ابن حجاج، وتكذّب عليه الحاتمي، وغيَّر الصاحب بعض شعره ثم انتقد ما غيره هو وسمى كتابه (الكشف عن مساوى شعر المتنبي)، وهو مفضوح الكذب والحقد. وانتقده ابن وكيع التنّيسي في كتابه (المنصف)، الذي كان (غير منصف) بإجماع الدارسين. وعملوا على تشويهه وتخميله والتمحل عليه، وحاصروه من ست الجهات فطلع الى ايران (مراغما). وفي ايران كانت غربته الكبرى؛ فهو يختلف عن العجم في ملامح الوجه، وخط اليد، ولغة اللسان:

وَلَكِـــنَّ الفَتـــى العَرَبِـــيَّ فيهـــا غَريبُ الوَجهِ وَاليَدِ وَاللِسانِ

أما الظلم، فالمتنبي عاش مظلوما في حياته، ومات مظلوما بقتله في رجوعه الحائر الى الكوفة، ولم يعرف له قبر حقيقي. وظلموا شعره حين جاؤوا عليه بقول كذب، فدسوا

فيه قصيدة مقذعة لا فن فيها أدب، فزعموا ان المتنبي هجا بها ظبة فقتله فاتك اللص انتقاما لشرفه!

عائلته

في عام (٣٠٣ هـ) ولد المتنبي في عائلة فقيرة جدا وخاملة جدا؛ فلم يحفل به أحد، أو يتوقع له أحد مستقبله الزاهر الذي صار عليه، وظلَّ يرفل بالنسيان والخمول، ويتجرع مرارتهما حتى ولدت فيه النقمة ثم الثورة.

ويظهر خمول أسرته جليَّاً في عدم اتفاق المؤرخين والمترجمين الا على اسمه فقط (أحمد)، وقد أكَّد صحته ذكرُه إياه في شعره:

جمعتْ بين جسم (احمدَ) والسقمِ وبينَ الجفونِ والتسهيدِ

واختلفوا في ابيه فقالوا (الحسين) و(محمد) و(عبدان) و(عيدان)، ولم يعددوا من اجداده غير جدين فقط مختلف فيهما؛ فهما (الحسن بن عبد الصمد) أو (مرة بن عبد الجبار)، فأي (أبتر هذا)!! وهو ردٌّ دامغ على من زعم انه علوي أو من اشراف العلويين. فالشريف الرضي مثلا يوصل مترجموه نسبه الى الامام الكاظم بسلسلة اجداد صحيحة لا خلاف فيها. ولم يذكر المتنبي اسم أحد أفراد اسرته في شعره عدا جدته التي رثاها بمرارة. ولم ينسَ أن يستحضر في رثائه قضية النسب والشرف وهو يرثي من لم يُنله ذلك، وكان ينتظره منه. وأشار الى وجود عائلة له عندما كان في (مصر) وفي (ايران). ولم يرثِ أباه لكونه معدما وبلا مجد.

ومثلما قلب عمر بن ابي ربيعة (معادلة الغزل) فجعل المحبوب يتغزل به وليس هو يتغزل بالمحبوب، قلب المتنبي معادلة (الفخر)؛ فالعادة أن يفخر الفاخر بآباء واجداد ذوي مجد للدلالة على كونه ماجدا، ولكن المتنبي يقول لكوني (الأمجد) فهو دليل على ان آبائي وأجدادي ذوو مجد حتما. قال:

وَلَو لَم تَكوني بِنتَ أَكرَمِ والِدٍ لَكانَ أَباكِ الضَخمَ كَونُكِ لي أُمّا

أي (لو لم يكن أبوك أكرم والد، لكانت ولادتك لي بمنزلة أب عظيم تنسبين اليه). فاذا كان السائد (آباؤه عظام اذن هو عظيم)، ففلسفة المتنبي مقلوبها (هو عظيم اذن آباؤه عظام)!! وما دفعه الى وضع هذه النظرية الغريبة سوى أن آباءه غير عظام بل

خاملون بالتمام. وقد صنعهم هو صنعا، وفرضهم فرضا، برغم التاريخ والحقيقة. ولم يكتف بأن يُبدئ العظمة به لتكون في نسله، بل يفجر العظمة تفجيرا عاصفا تجعله فيه، ومتقدمة في نسله، وراجعة الى أصله واجداده. فيمنح كلا الاتجاهين العظمة: أجداده وأبناءه. فجعل أجداده يتشرفون ويفخرون به وليس العكس هو الصحيح، في قوله:

لا بِقَومي شَرُفتُ بَل شَرُفوا بي وَبِنَفسي فَخَرتُ لا بِجُدودي
وَبِهِم فَخرُ كُلِّ مَن نَطَقَ الضادَ وَعَوذُ الجاني وَغوثُ الطَرِيدِ
إِن أَكُن مُعجَباً فَعُجبُ عَجيبٍ لَم يَجِد فَوقَ نَفسِهِ مِن مَزيدِ

هذا قلب المعادلة؛ فأجداده هم يفخرون به وليس العكس. واجداده فخر العرب جميعا. وهو يقصد ان الذي يفخر بجدوده لا يجد شيئا شخصيا يفخر به. كما قال:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث والنجل بعض من نَجَلَهْ
وَإِنَّما يَذكُرُ الجُدودَ لَهُم مَن نَفَروهُ وَأَنفَدوا حِيَلَهْ

نفروه أي غلبوه في الفخر، و(أنفدوا حيله) راحوا يبحثون في مجد اجدادهم لسد النقص في مجدهم الشخصي. وهي اشارة الى بحث الناس عن مطعن في حسبه ونسبه. وذكر علي بن المحسن عن أبيه قال: (سألتُ المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به).

ومن أسباب خموله (الفقر المدقع) لأسرته، فقد كان ابوه سقَّاء يعيش على حمل الماء الى المحلة. وقد عيَّر العراقيون المتنبي بمهنة والده:

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا

وكان سبب عزوف المتنبي عن ذكره في شعره ورثائه، انه لم يجد باعثا على ذلك. ورثى جدته لامه وكان يسميها (أمه) لان امه ماتت فربَّته هي، وعلى عكس والده كانت معايشته لها واحتكاكه بها كبيرا مؤثرا. وكان يحبها حبا شديدا مفرطا كما يظهر من رائعته في رثائها، فقد جاء كأوار نار مستعرة من أعماقه السحيقة، ودموعه التي صبها

بغزارة خلال الابيات كالوقود زادتها استعارا، ولم نشاهد للمتنبي عاطفة صادقة كما رأيناها في حبه ورثائه لجدته.

وأصل المتنبي (جعفي) وهي عشيرة يمنية ترجع الى (كهلان). ويؤكد ذلك ديوانه فغالبية ممدوحيه الاوائل قحطانيون. واعتذر لأحدهم، وقد قيل له ان المتنبي يذمك، فقال:

أبت لك ذمي (نخوة يمنية) ونفس بها في مأزق أبداً ترمي

وأسرة المتنبي تتكون من أم ماتت عنه طفلا، وأب مات عنه شابا، وجدة ماتت عنه كهلا، وكانت حسب المصادر (همْدانية صحيحة النسب ومن صلحاء النساء الكوفيات) وذكرت المصادر له من الاولاد ابنا واحدا هو (محسد) كان يسافر معه، وقتل معه في النعمانية. ولكن المتنبي في شعره يقدِّم صورة أوضح لأسرته وظروفها؛ فيؤكد ان له عائلة كبيرة تركها في الكوفة في أثناء طوافه بين الإمارات والدول وليس ولداً واحداً (هو محسد)، ففي شيراز، وكان ابنه معه، ذكر لعضد الدولة انتظار عائلته له في الكوفة:

وكم دون الثوية من حزين يقول له قدومي ذا بذاكا

والثوية موضع في الكوفة. وقوله: (كم من حزين) يدل على عائلة كبيرة، ومحسَّد كان أكبر أبنائه، وقد استصحبه معه ليعينه على أموره في حلب، وفي رحلته المميتة إلى إيران حيث قتل معه. غير انه لم يأخذه معه إلى مصر بل فضَّل أن يعود إلى العائلة في الكوفة؛ لأنه لا يذكره في شعره ولا تذكره المصادر معه في مصر؛ والراجح انه رأى رحلته لمصر محفوفة بالمجازفات والكثير من الاستفهامات. كما ورد ذكر العائلة في شعره الذي قاله في سوريا وفي مصر؛ ففي حلب كان يستأذن الأمير لزيارة أهله في الكوفة (بشكل دوري) مما يعني ان وجود محسد معه ليس على الدوام:

إذن الأمير بأن أعود إليهم صلة تسير بشكرها الأشعار

وفي مصر يذكر شوقه إليهم ولكنه لا يستطيع مواصلتهم لأنه ممنوع من السفر:

أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغربُ

وهذا يدل على انه كان يفضل إبقاءهم في الكوفة على أخذهم معه أينما ذهب، لأنه آمن لهم. كما يدل على أن المتنبي لم يجعل غاية طموحه (المال) بل (الملك) وإلا لحمل عائلته معه حيث يحل، واكتفى برفد الممدوحين وعاش حياة مستقرة مرفهة، وهذا يفسر أن شخوصه إلى حلب كان لنفس الغاية، وان سفره إلى كافور سببُه يأسُه من الملك جوار سيف الدولة فتركه؛ فهذا الذي اضطره إلى ترك أهله في الكوفة ومواصلتهم بين الحين والأخر.

المتنبي والمرأة

لابد من ذكر النساء في حياته، فقد تزوج مرة واحدة زواجا تقليديا من امرأة لم يذكرها في شعره. ورجَّح البعض انها من الشام، والصحيح انها من الكوفة لأنها بقيت في الكوفة ولم تبرحها حتى قتل المتنبي بنية العودة اليها. وقد تزوجها مبكرا وفي حياة جدته، فبقيت معها تقوم بأمرها وأمر اولادها، والمرجح انه تزوج بعمر (١٦) أو (١٧) سنة، واذا جعلنا ولادة محسد عام (٣٢٠هـ) أي بعمر (١٧) سنة للمتنبي فيكون عمر محسد عند اتصال المتنبي بسيف الدولة (١٧) سنة، وهي سن معقولة؛ لان المتنبي استصحبه معه. أما ما ذكر بأنه تزوج بعد عام (٣٢٩هـ) فهو خطأ لان عمر محسد بهذا سيكون في عام (٣٣٧هـ) (٦ أو ٧) سنوات فقط! فكيف يصحبه المتنبي معه بهذا العمر.

ووصف المتنبي بأنه (كان عزهاة لا تطَّبيه النساء = لا تستميله المرأة). وقد أخطأ محمود شاكر خطأ فاحشا حين زعم أن المتنبي أحب (خولة) أخت سيف الدولة، فالمتنبي ليس من رجال الحب كما قال:

وَغَيرُ فُؤادي لِلغَواني رَمِيَّةٌ وَغَيرُ بَناني لِلزُجاجِ رِكابُ
تَرَكنا لِأَطرافِ القَنا كُلَّ شَهوَةٍ فَلَيسَ لَنا إِلّا بِهِنَّ لِعابُ
يا عاذِلَ العاشِقينَ دَع فِئَةً أَضَلَّها اللهُ كَيفُ تُرشِدُها
بِئسَ اللَيالي سَهِرتُ مِن طَرَبي شَوقاً إِلى مَن يَبيتُ يَرقُدُها

وسبب (اتهام) محمود شاكر المتنبي بعشق خولة، وهو في نظري ونظر المتنبي (اتهام باطل وخطأ قاتل) أنه أراد (قفشة اعلامية) وجديدا مبهرا لتسويق نفسه، فكل ادلته هراء. فعدم ذكر اسمها صراحة **(أجلّ قدرك أن تسمي مؤبَّنة)** **(كأنَّ فعلة لم تملأ مواكبها)** سببه ان العرف العربي يأبى ذكر اسم المتوفاة، بينما يذكر اسم المتوفى، ولذا عرَّفها مكنِّيا:

يا أُختَ خَيرِ أَخٍ يا بِنتَ خَيرِ أَبٍ كِنايَةً بِهِما عَن أَشرَفِ النَسَبِ

وكأنه قال على الطريقة العراقية في التعريف بالميتة (توفيت فلانه أخت خير أخ سيف الدولة، بنت خير أب حمدان)

وقوله:

طَوى الجَزيرَةَ حَتّى جاءَني خَبَرٌ فَزِعتُ فيهِ بِآمالي إِلى الكَذِبِ
حَتّى إِذا لَم يَدَع لي صِدقُهُ أَمَلاً شَرِقتُ بِالدَمعِ حَتّى كادَ يَشرَقُ بي
يَظُنُّ أَنَّ فُؤادي غَيرَ مُلتَهِبٍ وَأَنَّ دَمعَ جُفوني غَيرُ مُنسَكِبِ
بَلى وَحُرمَةِ مَن كانَت مُراعِيَةً لِحُرمَةِ المَجدِ وَالقُصّادِ وَالأَدَبِ
وَلا ذَكَرتُ جَميلاً مِن صَنائِعِها الّا بَكَيتُ وَلا وُدٌّ بِلا سَبَبِ
قَد كانَ كُلُّ حِجابٍ دونَ رُؤيَتِها فَما قَنِعتِ لَها يا أَرضُ بِالحُجُبِ
يا أَحسَنَ الصَبرِ زُر أَولى القُلوبِ بِها وَقُل لِصاحِبِهِ يا أَنفَعَ السُحُبِ
وَأَكرَمَ الناسِ لا مُستَثنِياً أَحَداً مِنَ الكِرامِ سِوى آبائِكَ النُجُبِ

فأقصى ما تفيد هذه الابيات التي فسرها شاكر بالحب: أنه فزع من خبر وفاتها وتمنى كذبه، فلما تأكد صدقُه بكى بكاء شديدا. وان سيف الدولة يظن انه غير حزين عليها! كيف؟ ولها حرمة رعاية الادب. وكان لها افضال عليه كلما ذكرها بكى بسبب تلك الافضال. وانها امرأة محجبة غير مبتذلة ولا تُرى الا بحجاب أتم من حجاب القبر فكيف قنعت بحجاب ايسر مما تعودت؟ ويا احسن الصبر زر اولى القلوب بحبها، وهو قلب اخيها الكريم الذي لا يقاس بكرمه الا اجدادُه الكرام. فأين الحب؟!!

فهذه الابيات رثاء تقليدي لخولة ومدح لسيف الدولة، وليس فيها عاطفة حب لو كانت لطغت بما لا يقبل اي شك، ولتنبه على ذلك القدماء. بل هي ابيات لا عمق عاطفيا فيها، لذا قال عنها العكبري (لا طائل تحتها). وقد لا نلوم محمود شاكر فالمتنبي عنده قدرة فائقة على الاقناع، تقول الشاعرة لميعة عباس عمارة: (والدارس لشعر المتنبي يقع في اخطاء ومطبَّات صنعها له المتنبي نفسه. كأن تجد بوحا لا يمكن أن يصدر الا عن

تجربة حقيقية؛ لأنه يحمل عنف الصدق، وعمق التجربة. إذن فالمتنبي لابدَّ أن يكون كذلك. هذا استنتاج هيأه لك المتنبي نفسه فأوقعك فيه).

أما الابيات التي يعترف فيها بأنه أحب مثل **(وعذلت أهل العشق حتى ذقته)** فهي كغزله في مطالع القصائد التقليدية.

ولديه غزل صادق عام في البدويات غرضه اصلاحي هو توجيه نظر واهتمام الشباب الى العربيات البدويات وصرفهم عن الاجنبيات (الجواري والسراري)، فالعربيات جميلات وفصيحات بالفطرة، بينما الاجنبيات يتصنعن جمالا ويتكلفن كلاما:

مَنِ الجَآذِرُ في زِيِّ الأَعاريبِ حُمرَ الحُلى وَالمَطايا وَالجَلابيبِ
ما أَوجُهُ الحَضَرِ المُستَحسَناتُ بِهِ كَأَوجُهِ البَدَوِيّاتِ الرَعابيبِ
حُسنُ الحَضارَةِ مَجلوبٌ بِتَطرِيَةٍ وَفي البَداوَةِ حُسنٌ غَيرُ مَجلوبِ
أَفدي ظِباءَ فَلاةٍ ماعَرَفنَ بِها مَضغَ الكَلامِ وَلا صَبغَ الحَواجيبِ
وَلا بَرَزنَ مِنَ الحَمّامِ ماثِلَةً أَوراكُهُنَّ صَقيلاتِ العَراقيبِ

واستعمل المتنبي المرأة رمزاً في ايران بقوله:

إِثلِث فَإِنّا أَيُّها الطَلَلُ نَبكي وَتُرزِمُ تَحتَنا الإِبلُ
لَو أَنَّ فَنّاخُسرَ صَبَّحَكُم وَبَرَزتِ وَحدَكِ عاقَهُ الغَزَلُ
وَتَفَرَّقَت عَنكُم كَتائِبُهُ إِنَّ المِلاحَ خَوادِعٌ قُتُلُ

فهو يقول: أيتها العربية لو برزت وحدك لجيوش عضد الدولة لهزمتِه! فهو يريد أن يقول مكنيا ورامزاً: لو وقعت معركة بينكم وبين العرب، فالمرأة العربية وحدها تهزمكم. وعلق ابن جني على الابيات قائلا: (أنه كنى بذلك عن الهزيمة).

وباقي ذكر المرأة في شعره عزل تقليدي، فيه صنعة ومهارة كبيرة ولكن المرأة فيه (لوحة معلقة على جدار القصيدة) بلا روح.

طموحه

ولد طموح المتنبي من (نقمته)؛ وقد بدأت نقمته على حاله المزرية من وخمول ذكر. وكان يعيش في كنف ابيه (السقاء)، وبعد موت ابيه لم يكن غيره من يقوم بأعباء عيش العائلة. ويذكر المتنبي في شعره انه كان يقوم بأعمال شاقة مقابل القليل من الفائدة، وانه كان يتجشم اعباء السفر الكثير من اجل لقمة الكرامة. في قصيدة قال الواحدي انه قالها في صباه، يهذي المتنبي بشكواه من الفقر والجهد وحظه منحوس وهمته عالية:

أين فضلي إذا قنعتُ من الدَّهرِ بعيشٍ معجّل التنكيدِ
ضاق صدري وطال في طلبِ الرِزقِ قيامي وقل عنه قعودي
ابداً أقطع البلادَ ونجمي في نحوسٍ وهمتي في سعودِ

ونقرأ له شعرا يمدح به صغراء الكوفة بهدف الحصول على المال القليل، كقوله في مدح شخص مجهول:

يا مَن لِجودِ يَدَيهِ في أَموالِهِ نِقَمٌ تَعودُ عَلى اليَتامى أَنعُما
حَتّى يَقولَ الناسَ ماذا عاقِلاً وَيَقولَ بَيتُ المالِ ماذا مُسلِما
إِذكارُ مِثلِكَ تَركُ إِذكاري لَهُ إِذ لا تُريدُ لِما أُريدُ مُتَرجِما

ثم توسعت نقمته الى الثورة الشاملة على واقع الامة، والملوك الحاكمين. ورأى أن سبب التردي يعود الى ناس خانعين وملوك غير مستحقين. وقد وصف حال الناس بأنهم لا همة لهم ولا طموح. ورأى الطلل الاولى بالبكاء عليه، ليس طلل الحبيبة الراحلة، بل (الهمم الراحلة) منذ زمان جدِ بعيد، وبكاؤها ليس باستذكارها وتوديعها بل باستحضارها واعادتها:

أَحَــقٌّ عــافٍ بــدَمْعكَ الهِمَــمُ أَحْـدَثُ شـيءٍ عَهْـداً بهـا القـدَمُ

وعوضا عن همة الثورة عاشوا (الحالة الدونكيشوتية)، فـ(دون كيشوت) كان غير قادر على المواجهة والتغيير، لذا فهو يهرب من المعارك الحقيقية الى معارك وهمية، فيهجم

بلا هوادة على قطعان البقر، أو على طواحين الهواء!! وهكذا جيله فقد هاجم اثنان جرذا حقيرا وقتلاه، ثم تفاخرا بقتله وصار كل منهما يدّعي انه قتله:

لَقَد أَصبَحَ الجُرَذُ المُستَغيرُ أَسيرَ المَنايا صَريعَ العَطَبْ
رَماهُ الكِنانِيُّ وَالعامِرِيُّ وَتَلّاهُ لِلوَجهِ فِعلَ العَرَبْ
كِلا الرَجُلَينِ اِتَّلا قَتلَهُ فَأَيُّكُما غَلَّ حُرَّ السَلَب
وَأَيُّكُما كانَ مِن خَلفِهِ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً في الذَنَب

وتلك (سخرية هذا الغلام الثائر من همة رجلين قتلا جرذًا) كما قال الواحدي. وفي موقف آخر يصف الناس بانهم صغار النفوس ضخام الاجسام، والمعارك الطاحنة التي يقومون بها يومية، ولكنها ليست في سوح الشرف والبطولة، ولا يسقطون فتلى عن خيولهم، بل هي معارك في داخل بطونهم، واعداؤهم الاكل ينقضون عليه فلا يبقون منه بقية، فهم يموتون تخمة وليس قتلا. ومدنهم عامرة الا من الكرام:

وَدَهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ وَإِن كانَت لَهُم جُثَثٌ ضِخامُ
بِأَجسامٍ يَحَرُّ القَتلُ فيها وَما أَقرانُها إِلّا الطَعامُ
وَخَيلٍ ما يَخِرُّ لَها طَعينٌ كَأَنَّ قَنا فَوارِسِها ثُمامُ
بِأَرضٍ ما اِشتَهَيتَ رَأَيتَ فيها فَلَيسَ يَفوتُها إِلّا الكَرامُ

والحقيقة ان المتنبي كان لديه طموحان: الثروة والملك. وكان الغنى أهون طموحيه هذين، ولكنه سعى اليه بكل ما عنده من طاقة، انتقاما من الفقر المزمن لعائلته، ولإسعاد عائلته، وله فيه مآرب أخرى ستتبين لاحقا. فقد كان يأمل أن يُسعد عائلته ويعيّشها في بحبوحة وعيشة راضية، ويبتر الفقر المتوارث بما حباه الله من همة عالية. يؤكد ذلك قوله في رثاء جدته:

طَلَبتُ لَها حَظّاً فَفاتَت وَفاتَني وَقَد رَضِيَتْ بي لَو رَضيتُ بِها قِسما

أي طلبتُ من أجلها نصيبا من الغنى، وبحبوحة من الرزق، ففوّت عليها موتها ذلك، كما فاتتي تحقيق هذا الحلم. وكانت جدته قنوعة مكتفية بوجوده قربها عن بعده الطَّموح. فلا نال الغنى وعاد به اليها، ولا بقي قربها وعاش معها بقية حياتها.

وفي شعر صباه نقرأ بوادر طموحه ونكوى بحرائق ثورته التي ستزداد استعارا، فقد قالوا له مرة (ما أحسن هذه الوفرة = الشعر الكثيف)! فرد عليهم بأنها تحسن وهو معتقل رمحه في الحرب:

لا تَحسُنُ الوَفرَةُ حَتّى تُرى مَنشورَةَ الضِفرَينِ يَومَ القِتالْ
عَلى فَتىً مُعتَقِلٍ صَعدَةً يَعُلُّها مِن كُلِّ وافي السِبالْ

وله قطعة اخرى يكشف فيها عن هدفه في الثورة، وان الناس ينتظرون منه ذلك:

مُحِبّي قِيامي ما لِذَلِكُمُ النَصلِ بَريئاً مِنَ الجَرحى سَليماً مِنَ القَتلِ
أَرى مِن فِرِندي قِطعَةً في فِرِندِهِ وَجَودَةُ ضَربِ الهامِ في جَودَةِ الصَقلِ
أَمِط عَنكَ تَشبيهي بِما وَكَأَنَّهُ فَما أَحَدٌ فَوقي وَلا أَحَدٌ مِثلي
وَذَرني وَإِيّاهُ وَطِرفي وَذابِلي نَكُن واحِداً يَلقى الوَرى وَانظُرَن فِعلي

بداية الرحلة الى الطموح

بدأ مشوار طموحه (شاعرا) فسافر من الكوفة الى بغداد عام (٣٢١هـ) وعمره (١٨) سنة. ولأنه لا يملك (أجرة السفر)، فقد ذهب مشيا على الأقدام الى الممدوح، ومركوبه (نعاله) وهذا يظهر فقره المدقع:

لا ناقَتي تَقبَلُ الرَديفَ وَلا بِالسَوطِ يَومَ الرِهانِ أُجهِدُها
شِراكُها كُورُها، وَمِشفَرُها زِمامُها، وَالشُسوعُ مِقوَدُها
أَشَدُّ عَصفِ الرِياحِ يَسبِقُهُ تَحتِيَ مِن خَطوِها تَأَيُّدُها

فنعاله (ناقته) لا يقبل راكبا خلفه، ولا يضرب بالسوط ليسرع. كان يحاول أن يجد بابا مفتوحا على الخليفة العباسي ليختصر طريق الوصول الى المجد الشعري بقصد اعلى الممدوحين، لأنه بقي في بغداد أكثر من سنة، ولولا ذلك لما بقي فيها طويلا. . ولكنه لم

يستطع الوصول الى الخليفة العباسي مخترقا أبواب الحجَّاب الصفيقة. ولعله حقد على الخلفاء العباسيين من وقتها. ففي عز مجده وشهرته وطمع الملوك والامراء بمدحه، عزف عن مدحهم. وكان هو أصلا يرى ان خراب الامور بسبب ضعف الخلافة العباسية. وفي بغداد مدح (محمد بن عبيد الله العلوي المشطّب) الذي جاءه راكبا نعاله. وقيل ان المشطَّب كان أخاه في الرضاعة، ممن كان يريد ايجاد ربط للمتنبي بالعلويين.

بعد يأسه من الوصول الى باب الخليفة لعدم شهرته ونضوج شعره بما يكفي قصد الشام، وسبب اختياره الشام يعود الى سببين:

الاول– انه سيجد ممدوحين أصغر وأقل شأنا يبتدئ بهم باعتباره شاعرا غير مشهور، ثم يتدرج صعودا الى أعلى الممدوحين، وهو ما حصل له فعلا.

الثاني– ان الشام أرضية مناسبة للثورة بكونها مستقبلاً سياسياً لم يحسم، وخارطة دائمة التبدل، فهو مرتع لأصحاب الطموح والقوة والنفوذ؛ فتصعد أسماء على حساب أسماء أخرى ثم ما تلبث أن تظهر أسماء جديدة. ولذا فهي تربة خصبة لطموحه. فجال على الممدوحين الصغار.

مراحل طموحه

مرَّ طموح المتنبي بأربع مراحل:

الاولى، المدح وكسب المال لتمويل ثوراته الكثيرة التي لم ينجح أيٌّ منها، واشاعة الشعر الحماسي لإلهاب الناس والنهوض معه.

الثانية، البحث عن (قائد افتراضي) يقلب الامور ويعيدها الى نصابها، وكان سيف الدولة أوج هذه الفرضية.

الثالثة، طرح نفسه القائد الافتراضي، عن طريق حكم ولاية في مصر يمنحها له كافور الاخشيدي فلم يتحقق.

الرابعة، اليأس والخيبة من طموحه، والعودة الى الكوفة نافضا يديه.

المرحلة الاولى: الشعر والثورة

كان شعره الاول في الشام يتوزع على ثلاث مناطق جغرافية (الجزيرة- وشمالي الشام) و(اللاذقية) و(طرابلس) ولم يحصل على ما يتمنى من مال او ما يشجعه على الاستمرار، فقد مدح بدينار واحد فقط، وسميت قصيدته **(بأبي الشموس الجانحات غواربا)** (القصيدة الدينارية)، بل مدح بدراهم معدودة. فأحس بالاخفاق في أمل جمع الثروة من شعره الاول لكونه في طور النضوج، ولقوة الاصطراع بين الشعراء واحتكار القرب من الامراء. وهنا عاد المتنبي الى الخيار الثاني كما قال في صباه (إما الثراء والملك او الثورة والموت) فصار يدعو الى الثورة وصار يعبئ لها بشعر مزلزل مجلجل هو أقوى شعر قاله على الاطلاق، ويمثل صبغة او طابع شعر المتنبي الذي عرف به. من مثل قوله:

عشْ عزيزا او مُتْ وانت كريم بينَ طعن القنا وخفق البنودِ
فرؤوسُ الرماح أذهبُ للغيظ واشفى لغلّ صدر الحسودِ
لا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ واذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فقيدِ
فاطلبِ العزَّ في لظى وذرِ الذُلَّ ولو كانَ في جنان الخلودِ

أو قوله:

لَقَد تَصَبَّرتُ حَتّى لاتَ مُصطَبَرٍ فَالآنَ أُقحِمُ حَتّى لاتَ مُقتَحَمِ
لَأَترُكَنَّ وُجوهَ الخَيلِ ساهِمَةً وَالحَربُ أَقوَمُ مِن ساقٍ عَلى قَدَمِ
ميعادُ كُلِّ رَقيقِ الشَفرَتَينِ غَداً وَمَن عَصى مِن مُلوكِ العُربِ وَالعَجَمِ

لقد كان المتنبي في هذه المرحلة متذبذبا بين الاستمرار في الشعر أو اختيار الثورة، فاختار الثورة، ودفع اليها أكثر عدم تحقيقه ما توقعه من تأثير شعري يطبق شهرته الارض. ولعل السبب استعجاله القريحة الشعرية وعدم منحها الوقت لاسماحها بالشعر العبقري المطلوب.

وثار ثورات عدة لم يُعن أحد يتسجيلها، وقد قرنت بتهمة مخلة بالدين والسمعة وهي (ادعاء النبوة) وكان مثل هذه التهم من وسائل العباسيين وأتباعهم في تسقيط خصومهم. والحقيقة كانت الثورية مرافقة للمتنبي في عموم سيرته ومسيرته تظهر كلما وجدت مُناخا وفرصة، لذا سجل شعره وسجل مؤرخوه حركات وثورات له كثيرة ومستمرة.

وكان المتنبي ثائرا وشاعرا مزدوجا، يقوى هذا حينا ويقوى ذاك حينا آخر، وحينا يجتمعان فيحمّل شعره الثورة وقد سمى علي شلق المتنبي بـ(شاعر ألفاظه تتوهج فرسانا تأسر الزمان). وتذكر المصادر ثورة واحدة للمتنبي أو محاولة للثورة. والحقيقة ان المتنبي قام بأكثر من حركة وثورة لا يوقف على عددها، وفي طيات أخباره وشعره ثورات كثيرة تتوزع البقاع المختلفة وفترات حياته من الحداثة الى ما قبل مقتله بست سنوات فقط (في مصر عام ٣٤٨هـ). ومن اجل تشويهه وتسقيطه كان يرمى بادعاء النبوة مستغلين لقبه (المتنبي) بتحريفه الى (دعي النبوة). وانما لقبه الكوفيون وهو صبي بالمتنبي وهو يعني الحاذق الذي يتنبأ بالشيء فيقع فعلا (وسنشرح ذلك في عنوان لقبه).

وذكرت المصادر (ادعى انه علوي حسني) و(ادعى النبوة) واشتجروا في لغط طويل عريض دون ان يربطوا هذه المقدمات بنتيجة سجنه بشكل مقنع، ويذكرون انه سجن مرة واحدة في حمص. بينما يخبرنا شعره بأكثر من سجنة. ولابد أن توضح حيثيات ثورته وسجنه.

كان العلويون المعارضة الاقوى للعباسيين، وقد ثار في العصر العباسي ثوار علويون كادوا أن يسقطوا الدولة العباسية مثل: محمد ذي النفس الزكية وأخيه ابراهيم، الحسين بن علي الخير، أبي السرايا وابن طباطبا العلوي، يحيى بن عمر. والثورات العلوية تقسم على قسمين: الاول يشترط وجود امام معصوم معاصر وهو المعني بشعارها (الرضا من آل محمد) (وهو المذهب الامامي) والثاني يشترط أن يكون الثائر علويا حسنيا أو حسينيا دون وجوب وجود الامام المعصوم (وهو المذهب الزيدي)، بدأه زيد بن علي وسار عليه بعده أغلب الثوار العلويين في العصر العباسي.

لهذا ادعى المتنبي (أنه علوي حسني) ليكتسب الغطاء الشرعي للثورة وفق المذهب الزيدي فيكون قائماً بنفسه في الشرعية غير محتاج للدعوة إلى (الرضا من آل محمد). بعد تلك الدعوى صار المتنبي مهيئا شرعا للثورة بمسمَّى (ثائر علوي). وقد ثار المتنبي بعد عام ٣٢٥هـ (باعتقادنا). وتذكر الروايات انّه (تبعه خلق كثير). ثار في ارض سلمية كما يذكر ابن عساكر (فقبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها (كوتكين)، وجعل في عنقه ورجله من (خشب الصفصاف) فقال في ذلك:

زعم المقيم بكوتكين بأنّه من آل هاشم بن عبد منافِ

فأجبته: مذ صرت من أبنائهم صارت قيودهم من الصّفصافِ

وكتب يستعطفه ويتوسله حتى أطلقه ومما قاله:

بيديّ أيّها الأمير الأريبُ لا لشيءٍ إلاّ لأنّي غريبُ

أو لأمٍّ لها إذا ذكرتني دمُ قلبٍ بدمع عين يذوبُ

إن أكن قبل أن رأيتك (أخطأتُ) فإنّي على يديك أتوبُ

فهو يعترف صراحة بأنه (ثار بالفعل) فقال (أخطأتُ).

وثار في بادية السماوة كما يذكر الذهبي (فأسره لؤلؤ أمير حمص بعد أن حارب) وقد اتهمه بـ(العدوان على الناس) كما يخبرنا المتنبي، ولعلها من التهم الجاهزة التي تلقى على المعارضين لتصفيتهم. فكتب المتنبي الى الامير من السجن:

دَعَوتُكَ عِندَ اِنقِطاعِ الرَجاءِ وَالمَوتُ مِنّي كَحَبلِ الوَريدِ

تُعَجِّلُ فِيَّ وُجوبَ الحُدودِ وَحَدّي قُبَيلَ وُجوبِ السُجودِ

وَقيلَ (عَدَوتَ عَلى العالَمينَ) بَينَ وِلادي وَبَينَ القُعودِ

فَما لَكَ تَقبَلُ زورَ الكَلامِ وَقَدرُ الشَهادَةِ قَدرُ الشُهودِ

وَكُن فارِقاً بَينَ دَعوى (أَرَدتُ) وَدَعوى (فَعَلتُ) بِشَأوٍ بَعيدِ

نلحظ في هذه الابيات أن المتنبي كان خائفا هذه المرة؛ فهو يتوسل توسلا مهينا وصل الى الالحاح والاستخذاء بما يفقد الكرامة، والاعتذار بما لا يقبله المنطق ويثير الضحك، فهو يقول: كيف تعاقبني وانا لا زلت صغيرا في مرحلة (قبل المشي) فانا بين الولادة والقعود توا!! وينكر انه قام بالثورة بل أراد القيام بها (دعوى أردت ودعوى فعلت)، وانه وُشي به كذبا. يفهم منه السامع أنه يقول اي شيء استسلاما ليعفى عنه ويخرج من السجن. وتذكر المصادر انه (حبس طويلا حتى كاد يتلف).

ولكثرة ثوراته وتأليباته وصرخاته الشعرية الحماسية فقد عرف ثائرا وشعره ثوريا. وصارت نغمة شعره الحماسية مطربة للناس اذ وجدوا فيها التعويض عن تراجعهم وحالة الخمول والضعف والشيخوخة واليأس التي يعيشونها، وأنها تعيد فيهم الفروسية والعنفوان والمجد التي فارقوها وتدعوهم الى اعادة الماضي المجيد. وكان هذا الشعر سر خلود المتنبي واحتفاظه بشعبيته في كل العصور، وجعله الشاعر الأول تقديراً وقراءة (وكثير من الشعراء يقدّرهم الناس ولا يقرؤون لهم كجرير وابي تمام وغيرهم).

بعد خروجه من سجنه الاخير راجع خطته فتراجع عن الثورة الى جمع الثروة، ولكن هذه المرة أخلص لفنه الشعري فبلغ به قمته. وبعد خروجه من السجن اشتهر بلقب (المتنبي) بالمعنى المحرَّف (دعي النبوة).

المرحلة الثانية: البحث عن قائد

بعد سجنه الطويل في حمص قرر ترك الثورة (الى حين) والعودة القوية الى الشعر والضرب على اوتاره بكل مجامعه وهو ما كان، وما جعل شعره ينضج ويتكامل ويبلغ الاوج والقمة وقد امتلأ روحا وأخذ طابع واسلوب المتنبي المميز. وفي عام (٣٢٦هـ) كانت بداية مجده الشعري بمدحه الحسن بن عبيد الله بن طغج في الرملة بقصيدة مطلعها:

أَنا لائِمي إِن كُنتُ وَقتَ اللَوائِمِ عَلِمتُ بِما بي بَينَ تِلكَ المَعالِمِ

فقد أعطي عليها (ألف دينار) (وابيضت أيامه بعدها، وصار مطلوبا من الممدوحين).

ثم سار بشعره يبحث عن ممدوحين كبار، يبحث فيهم عن القائد الشجاع ذي الرؤية الثورية التغييرية. وكان بدر بن عمار من هؤلاء الذين علق عليهم آماله، ومن ذلك قوله فيه حالما متوخيا:

أَحُلماً نَرى أَم زَماناً جَديداً أَمِ الخَلقُ في شَخصِ حَيٍّ أُعيدا
تَجَلّى لَنا فَأَضَأنا بِهِ كَأَنّا نُجومٌ لَقينا سُعودا
رَأَينا بِبَدرِ وَآبائِهِ لِبَدرٍ وَلوداً وَبَدراً وَليدا
طَلَبنا رِضاهُ بِتَركِ الَّذي رَضينا لَهُ فَتَرَكنا السُجودا
قَتَلتَ نُفوسَ العِدا بِالحَديدِ حَتّى قَتَلتَ بِهِنَّ الحَديدا
خَلائِقُ تَهدي إِلى رَبِّها وَآيَةُ مَجدٍ أَراها العَبيدا
فَأَنتَ وَحيدُ بَني آدَمٍ وَلَستَ لِفَقدِ نَظيرٍ وَحيدا

انه يحلم بقائد اسطوري، يختصر الخلق كلهم به، ويستحق السجود ولكنه تخلى لايمانه بالله عن هذا الحق، وهو الفرد الذي لم يشفع من بني آدم، وفردانيته قائمة بنفسها ولم تتأتَّ له من موت نظير له. كان بدر بن عمار القائد المتنظر، ولكنه كان حلما، أو صورة عظيمة رسمها على لوحة رسم بليدة، انه تمدد من المتنبي الى أمله البعيد. وما لبث المتنبي أن تركه كما ترك غيره من أسماء ضجَّ بها ديون شعره.

الا ان اتصاله بسيف الدولة يعد منعطفا ونقطة تحول كبيرة على صعيد الشعر والثورة معا. كان يرى في سيف الدولة هذه المرة الحقيقة المطلقة في الانقلاب والتغيير. أمير قوي يهزم الروم هزائم متلاحقة في مدينة صغيرة (حلب)، وخليفة عباسي ضعيف يحكم صُوريا بقاع الدولة المترامية. كان يرى امكانية استحواذ سيف الدولة على بغداد وقيادة الامة، وسيف الدولة لا يرى ذلك؛ فالخليفة يملك ظلا مقدسا لدى الامة الاسلامية، فقد وقر لدى الناس ان الخلافة في (فهر قريش) حصرا، وسيف الدولة اذا قرر الاطاحة بالخلافة العباسية وكان لديه الامكانات العسكرية فرَضا، فهم يعلم انه لا احد سيطيعه ويقاتل معه حتى جيشه في حلب. ولم يكن غائبا عنه ما كان المتنبي يفكر به. ونجد

المتنبي يلمّح ويصرّح في هذه الابيات بذلك، وهي ابيات تظهر التطور الفني العظيم في شعره عند سيف الدولة والنضج العبقري العملاق الذي وصله:

لِكُلِّ اِمرِئٍ مِن دَهرِهِ ما تَعَوَّدا وَعادَاتُ سَيفِ الدَولَةِ الطَعنُ في العِدا
وَمُستَكبِرٍ لَم يَعرِفِ اللَهَ ساعَةً رَأى سَيفَهُ في كَفِّهِ فَتَشَهَّدا
تَظَلُّ مُلوكُ الأَرضِ خاشِعَةً لَهُ تُفارِقُهُ هَلكى وَتَلقاهُ سُجَّدا
ذَكيٌّ تَظَنّيهِ طَليعَةُ عَينِهِ يَرى قَلبُهُ في يَومِهِ ما تَرى غَدا
فَيا عَجَباً مِن دائِلٍ أَنتَ سَيفُهُ أَما يَتَوَقّى شَفرَتَي ما تَقَلَّدا
وَمَن يَجعَلِ الضِرغامَ بازاً لِصَيدِهِ تَصَيَّدَهُ الضِرغامُ فيما تَصَيَّدا
رَأَيتُكَ مَحضَ الحِلمِ في مَحضِ قُدرَةٍ وَلَو شِئتَ كانَ الحِلمُ مِنكَ المُهَنَّدا
وَما قَتَلَ الأَحرارَ كَالعَفوِ عَنهُمُ وَمَن لَكَ بِالحُرِّ الَّذي يَحفَظُ اليَدا
إِذا أَنتَ أَكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا

فهو يغري سيف الدولة بالخليفة العباسي من وجوه عدة، ويجعل منه المثال والقدوة والقائد القادر على تلبية احلام وطموحات الامة. ولكنه بحذقه توقف عن الحلم وصار يرى حقيقة سيف الدولة بأنه أمير صغير في بلد صغير (حلب)، وعرف ان سيف الدولة لا يبادله هذا الطموح، مما أدى الى الاختلاف معه.

واذا توقف العلماء والكتاب عند حد التفسير الصحيح للجفوة التي حصلت بين الرجلين، فان تفسيرنا المنطقي المستند الى شعره يؤكد ان السبب هو يأس المتنبي طموحا من سيف الدولة. وكانت قصيدة العتاب والضجة التي حدثت الحد الفاصل ثم الرحيل. بالعلن هدد المتنبي بالرحيل والى مصر (محددا)، وبرود تقبله سيف الدولة:

لَئِن تَرَكنَ (ضُمَيراً) عَن مَيامِنِنا لَيَحدُثَنَّ لِمَن وَدَّعتُهُم نَدَمُ
إِذا تَرَحَّلتَ عَن قَومٍ وَقَد قَدَروا أَن لا تُفارِقَهُم فَالراحِلونَ هُمُ

و(ضُمير) جبل يكون على يمين المسافر من حلب الى مصر). وحين طلب السامرّي الترخيص بقتله أعطي الترخيص. حقيقة ان سيف الدولة أراد الخلاص منه. فلماذا؟؟

جوابنا: ان هاجس الثورة لم يفارق المتنبي في حلب. ولكنه هذه المرة صار اكثر حنكة وتخطيطا، ورأى أن يحقق الثراء ويملك المال ليشتري به الاتباع فيثور ثورة منتصرة. وهو ما كان فعند سيف الدولة صار في طور الثورة بعد ان اكمل الاستعداد لها أو كاد، فجمع أو اشترى ألفا من الاتباع واستغلَّ غيبة سيف الدولة في بعض غزواته وقبل التنفيذ اتصل خبره بسيف الدولة فكر راجعاً واعجله (كما تقول المصادر). ولعل حرص سيف الدولة على ان يكون المتنبي معه في كل غزواته راجع الى أسباب احدها خوفه من تركه في مملكته فضلا عن رغبته في تسجيل ملاحمه الشعرية عيانا. ولكن عموما الرجلان اختلفا وتقاطعا، وصار (القُربَ اِزوِرارا وطَويلُ السَلامِ اِختِصارا) كما قال المتنبي، ثم صار علي المتنبي أن يرحل والسبب الاكبر انه لم يجد حلبا تعطيه أو تزيد على ما أعطته، فراسل كافور الاخشيدي وصارحه واشترط عليه أن يعطيه ولاية مقابل مدحه واتفقا على ذلك فترك المتنبي حلبا (متذرعا بمشاجرة تافهة مع ابن خالويه).

المرحلة الثالثة: طرحه نفسه القائد

بعد أن يئس المتنبي من وجود قائد بحجم مشروعه لم ييأس، بل لبس هو بزته، وتقلد رمحه الطويل وسيفه الجراز كما أسماه. ووجد أن أفضل حاضنة لمشروعه هي مصر. وترك الثورة الى طلب الدولة، كما وجدنا العلويين بعد ثوراتهم الكثيرة التي أخفقت فكروا ببناء الدول، فأسسوا دولة الادارسة في المغرب، والدول الفاطمية في المغرب ومصر. ولم يكن المتنبي بعيدا عن هذه الفكرة، وقد خاض غمارها ومشى عبر حلقاتها حتى انتهى الى ما انتهى اليه العلويون.

أراد أن يحصل أولا على (ولاية) ثم يتوسع حتى يشمل مصر وما حولها، ولا يدري اين كان منتهى مشروعه، وهذا أمر يكان يتفق عليه دارسو المتنبي. وفي أول لقاء بكافور عرّض بفكرة الولاية، وربما اتفق معه المتنبي وشارطه ليأتيه الى مصر، وكان

المتنبي مطلوبا من الملوك والامراء ليمدحهم لما في شعره من تخليد أكيد ومنزلة أفضل من أكبر مجد. قال المتنبي لكافور:

وَغَيرُ كَثيرٍ أَن يَزورَكَ راجِلٌ فَيَرجِعَ مَلكاً لِلعِراقَيينِ والِيا

وكرر الامر على كافور في قوله:

وَفُؤادي مِنَ المُلوكِ وَإِن كانَ لِساني يُرى مِنَ الشُعَراءِ

إِذا لَم تَنُط بي ضَيعَةً أَو وِلايَةً فَجودُكَ يَكسوني وَشُغلُكَ يَسلُبُ

كان المتنبي يظن ان كافورا (ت٣٥٧هـ) عبد اسود غبي، وانه يستطيع بشعره ان يحصل منه على (ولاية)، فتنازل عن بعض قدر الشعر الى قدر الملك، فكان اول تراجع فني له، الا انه أحكم القبضة ولم يسمح ان يتفلت حبله، فلا يزال محتاجا الى الشعر في هدفه. فلبس بزة السياسي والمخطط الانقلابي. اذ كان يرى ان مصر وكافورا فرصته الوحيدة اذا خابت خاب الى الأبد. ولكنه فوجئ بحنكة فاتك ودهائه السياسي وعلم انه أساء التقدير. واذا نظرنا الى اهاجي المتنبي في كافور نرى ان المتنبي لم يجد فيه مطعنا في عقل وتدبير ودهاء، فعيره بلونه وافترى عليه افتراءت تُضحِك ولا تصدّق.

وكان الاخشيد ملك مصر مولاه قد اشتراه ثم أعتقه ثم رقاه الى كبير القواد (لما رآه فيه من الحزم والفعل وحسن التدبير). ثم تعهد كافور ابني الاخشيد أبا القاسم ثم أبا الحسين. وفي عام ٣٥٥هـ استقل بحكم مصر عن الاخشيد الى ان مات عام ٣٥٧هـ. ولم يستطع الفاطميون احتلال مصر حتى مات كافور. وحين ألحَّ المتنبي على كافور من أجل الولاية قال له كافور علانية (لستُ أجسر على توليتك صيدا؛ لأنك على ما أنت عليه تحدّث نفسك بما تحدّث، فان وليتك صيدا فمن يطيقك).

وكان في مصر شخصية قوية يهابها ويخشاها كافور، وهو القائد (أبو شجاع فاتك الرومي) الملقب بـ(الكبير) (ت ٣٥٠هـ). وهو رفيق كافور في الرق والحرية؛ اشتراهما الاخشيد ثم أعتقهما. وحين ترقى كافور كبيرا للقواد ثم متعهدا ابني الاخشيد، انزوى فاتك الرومي في الفيوم (أنفة من السكن قرب كافور). وكانت هناك شخصية قوية وهو شبيب

العقيلي (ت٣٤٨هـ) والي الرملة والساحل لكافور، وكان يكره كافورا. وحين يئس المتنبي من الحصول على ولاية من كافور عادت اليه عادته الثورية، فخطط للإطاحة بكافور فشكل مع فاتك الرومي وشبيب العقيلي مثلثا انقلابيا.

انقلاب في مصر

لم أجد مصدراً تاريخياً، غير ديوان المتنبي، يتكلم عن (انقلاب) ضد كافور قاده الثلاثي: المتنبي مفكرا ثوريا، وفاتك الإخشيدي مخططا للانقلاب، وشبيب العقيلي منفّذا وقائدا ميدانيا، وذلك في عام (٣٤٨هـ). وهذه المرحلة اخطر مراحل تحولات المتنبي السياسية. وقد أخمد كافور بخبرته المؤامرة في مهدها، وقام بتصفية الانقلابيين مبتدئا باغتيال شبيب العقيلي. لذا لا نفاجأ إذا رأينا المتنبي لا يهنئ كافورا بالنصر بل يرثي شبيباً ويتهكم بكافور:

أتلتمس الأعداء بعد الذي رأت قيام دليل أو وضوح بيانِ
رأت كل من ينوي لك الغدر يُبتلى بغدر حياة أو بغدر زمانِ
برغم شبيبٍ فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبانِ

وحينما وصل الى قوله:

وقد قتل الأقرانَ حتى قتلتَه بأضعفِ قِرنٍ في أذلِّ مكانِ

قال كافور (لا والله إلا بأشد قِرن في اعزِّ مكان) وتهكم به بقوله:

فما لك تختار القسي وإنما عن السعد يرمى دونك الثقلانِ
لو الفلك الدوار أبغضتَ سعيه لعوَّقه شيء عن الدورانِ

وهذه الأبيات تدل على أن شبيباً قتل بغير سلاح، وهو ما تقوله المصادر؛ اذ تذكر ان شبيبا وهو يستعد للحرب سقط عن جواده ميّتا. ويدل على أن شبيباً كان على اتصال بفاتك قول المتنبي وهو يجمعهما في حالة واحدة :

واسودَ أما القلبُ منه فضيقٌ نخيبٌ وأما بطنه فرحيبُ
يموتُ به غيظاً على الدهر أهلُه كما ماتَ غيظاً فاتكٌ وشبيبُ

أما فاتك الرومي فتذكر المصادر أنه جرت المراسلات بينه وبين المتنبي كما انهما (التقيا في الصحراء وتباحثا)، ولابد أن تلك المراسلات واللقاء أو اللقاءات قد وضع في أثرها مخطط صارم للثورة، وهكذا تعود النغمات الحماسية إلى شعر المتنبي لتلهب الشعب المصري وتهيئه للمرحلة القادمة:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أنّ ما في الجسم منه حرابُ

يغيّر مني الدهرُ ما شاء غيرَه ويبلغ أقصى العمر وهي كعابُ

تركنا لأطراف القنا كل شهوةٍ فليس لنا إلا بهنَّ لعابُ

أَعَزُّ مَكانٍ في الدُنى سَرجُ سابِحٍ وَخَيرُ جَليسٍ في الزَمانِ كِتابُ

كما أنه عمل قصيدة دعائية لفاتك فمدحه ندا لكافور ولم يمدح المتنبي وزيراً أو من هو دون ملك في مصر، وبهذا تكون هذه القصيدة ترشيحية دعائية وفيها يقول:

واجز الأمير الذي نعماه فاجئةٌ بغير قول، ونعمى الناس أقوالُ

فهذا (تعريض بكافور) اذ يجعل عطايا كافور وعودا فقط دون تنفيذ. كما قال في موضع آخر:

أَمسَيتُ أَروَحَ مُثرٍ خازِناً وَيَداً أَنا الغَنِيُّ وَأَموالي المَواعيدُ

وفي قصيدته بيت يقول طه حسين انه يشير إلى أن المتنبي كان مسجوناً عند كافور أو أنه تحت المراقبة الشديدة، وهو:

وان تكن محكماتُ الشكل تمنعني ظهورَ جري فلي فيهن تصهالُ

وعن علاقة المتنبي بفاتك بسبب (المصير والهدف المشترك) يقول أبن جني: (ما رأيت أبا الطيب أشكر لأحد منه لفاتك). ويتضح ذلك الحب في مراثيه المتعددة ومقدار ما كتبه فيه؛ فأبياته في فاتك (٣٥٧) بيتاً وهي تناظر تقريبا أبياته في الشيرازيات (٣٩٦) بيتاً أي أعطاه أهمية عضد الدولة. ومن رثائه لفاتك الذي يشير الى ذلك الهدف قوله:

أيموت مثلُ أبي شجاعٍ فاتكٍ ويعيش حاسده الخصيّ الأوكعُ

أما المتنبي، فبعد فشل الانقلاب وقتلِ كافور شَبيبا عام ٣٤٨هـ غيلة، وفاتكا الرومي عام ٣٥٠هـ غيلة أيضاً، أدرك ان الدور قد حان عليه وعليه الهرب من مصر. وتُظهر حركة هروبه الخارقة مدى رعب المتنبي واستيلاء الخوف الواثق عليه من مصيره المؤكَّد، وأنَّ عليه أن يسابق لحظة الصفر وليست ساعة الصفر التي تنتهي بقتله غيلة أيضا. وقد شدَّد كافور عليه المراقبة ريثما يتخلص منه. وليس صحيحا انه حبسه عن السفر خوفا من هجائه. فقد احاطة بالجواسيس، ومرة دسَّ اليه (من يستعلم ما في نفسه، ويقول له طال قيامك عند هذا الرجل) فقال المتنبي عالما بما يحاك ضده:

يَقِلُّ لَهُ القِيامُ عَلى الرُؤوسِ وَبَذلُ المُكرَماتِ مِنَ النُفوسِ

إِذا خانَتهُ في يَومٍ ضَحوكٍ فَكَيفَ تَكونُ في يَومٍ عَبوسِ

وقد تعجب البديعي اشد العجب من أن يكون المتنبي وصل إلى هذه الحالة من التضعضع فقبل أن يقف على رأسه لكافور وهو الذي لم يرض أن ينشد سيف الدولة قائماً! واراد المتنبي مرة الذهاب الى الرملة لتحصيل مال له، فاستأذن كافورا فلم يأذن له وقال: (لا نكلفك المسير نحن نحصله لك)، فقال المتنبي متبرما:

أَتَحلِفُ لا تُكَلِّفُني مَسيراً إِلى بَلَدٍ أُحاوِلُ فيهِ مالا

وَأَنتَ مُكَلِّفي أَنبى مَكاناً وَأَبعَدَ شُقَّةً وَأَشَدَّ حالا

وكان بيته مراقبا أيضا بحيث ان جيرانه كانوا عيونا عليه. فلم يكن أمامه غير الهرب. وكانت مدة بقائه في مصر خمس سنوات.

المرحلة الرابعة: العودة الى الشاعر

كانت عملية هرب المتنبي من مصر الى الكوفة من العمليات فوق الكبرى في التاريخ؛ ورحلة خرافية لم يقدم عليها الا الابطال الاسطوريون في الملاحم. فقد عبر ثلاث دول (مصر، سوريا، العراق). انطلق المتنبي في عيد الاضحى مستغلا انشغال الدولة بالعيد عنه، وقد جهّز ما يحتاجه من ماء ومتاع واحتياجات. ولم يسلك الطرق المعبدة المعهودة، بل سار (على الحلل والاحياء، والمفاوز المجاهيل، والمناهل الأواجن)

متخطيا حرس وجواسيس كافور، وصعوبات ومخاطر كثيرة، وكان وأصحابه يركبون الجمال في رمال الصحراء، والخيول في الطرق. واستغرقت رحلته نحو اربعة اشهر من ٩ ذي الحجة سنة ٣٥٠هـ الى ربيع الاول سنة ٣٥١هـ فدخل الكوفة.

وفي طريقه الى الكوفة أنشد قصيدة رسم فيها مستقبله.

حَتّامَ نَحنُ نُساري النَجمَ في الظُلَمِ وَما سُراهُ عَلى خُفٍّ وَلا قَدَمِ
وَلا يُحِسُّ بِأَجفانٍ يُحِسُّ بِها فَقدَ الرُقادِ غَريبٌ باتَ لَم يَنَمِ
تُسَوِّدُ الشَمسُ مِنّا بيضَ أَوجُهِنا وَلا تُسَوِّدُ بيضَ العُذرِ وَاللِمَمِ
ما زِلتُ أُضحِكُ إِبلي كُلَّما نَظَرَت إِلى مَنِ اِختَضَبَت أَخفافُها بِدَمِ
حَتّى رَجَعتُ وَأَقلامي قَوائِلُ لي المَجدُ لِلسَيفِ لَيسَ المَجدُ لِلقَلَمِ
اِكتُب بِنا أَبَداً بَعدَ الكِتابِ بِهِ فَإِنَّما نَحنُ لِلأَسيافِ كَالخَدَمِ
أَسمَعتِني وَدَوائي ما أَشَرتِ بِهِ فَإِن غَفِلتُ فَدائي قِلَّةُ الفَهَمِ
مَنِ اِقتَضى بِسِوى الهِندِيِّ حاجَتَهُ أَجابَ كُلَّ سُؤالٍ عَن هَلٍ بِلَمِ
هَوِّن عَلى بَصَرٍ ما شَقَّ مَنظَرُهُ فَإِنَّما يَقَظاتُ العَينِ كَالحُلُمِ
وَقتٌ يَضيعُ وَعُمرٌ لَيتَ مُدَّتَهُ في غَيرِ أُمَّتِهِ مِن سالِفِ الأُمَمِ
أَتى الزَمانَ بَنوهُ في شَبيبَتِهِ فَسَرَّهُم وَأَتَيناهُ عَلى الهَرَمِ

لقد صار يستهزئ بطموحه وما عمله بسببه، متخليا عن افكاره التي كانت غير منطقية. فعليه ان يكفَّ عن مجاراة النجم في السير؛ فهو يسير برجل وخف فيتعب حتما، والنجم يسير بلا رجل وخف فلا يتعب. وهو لسيره الطويل يغالب النوم ويعاني النعاس، والنجم لا يملك عيونا فلا يغالب النعاس. فضلا عن ان الشمس تسوّد الوجه وظاهر جسده فقط. انه بات يضحك مع ابله من رحلاته السابقة التي أدمت اخفافها؛ فلا الغرض يستحق ذلك (طموحه) ولا الذين قصدهم يستحقون ذلك. وبعد رجوعه عن طموحه بنيل الملك بالقلم (الشِّعر) أخبرته اقلامه ان المجد لا يتحقق بها بل بـ(السيوف). فاكتب بها مسطّرا اولا بتحقيق طموحك، ثم اكتب بنا بعدها؛ فالسيوف تقيم الدول،

والاقلام تخدم السيوف. وفي زماننا كل امر تصنعه السيوف، وكل شيء غير السيوف يُطلب منه العون يجيبك بـ(لا). واذا لم يتحقق طموحك بنيل الملك والمجد والثروة فهوّن على عينيك عدم رؤيته، ما دام كل شيء رأته العين وتملّت فيه ستفقده يوما، فيستوى عندئذٍ ما رأته مع ما حُرِمت رؤياه (وهذا تسلية لنفسه). والوقت الذي عاشه وقت ضائع، فليته عاش عمره في الزمان القديم وفي غير أمته هذه ليحظى بالسعادة؛ فقد هرم الزمان على عهدنا لذا عشنا الحزن والحرمان. لقد أعلن في هذه القصيدة تركه طموحه وطيّ صفحته الى الابد، وعليه أن يفكر بالسير في طريق آخر.

بعد نحو سنتين قضاها المتنبي في الكوفة قرر أن يذهب الى بغداد فقصدها عام ٣٥٢هـ. وسبب ذهابه الى بغداد الحاجة الى المال لعيش مرفّه. بتقدير أن ما حصل عليه من سيف الدولة وغيره قد أنفقته عائلته؛ بعد انقطاع خمس سنوات قضاها في مصر. وما حصل عليه في مصر تركه هاربا، وحسب المتنبي فان اكثر عطايا كافور، أو بعد أن شكَّ بأمره، كانت وعودا دون صرف:

أَمسَيتُ أَروَحَ مُثرٍ خازِناً وَيَداً أَنا الغَنِيُّ وَأَموالي المَواعيدُ

فضلا عن انه بقي سنتين في الكوفة بعد عودته، مما يؤكد حاجته الى المال. وكذلك أراد أن يلتقي بملوك المشرق كما التقى بملوك المغرب، فعاد الى بغداد شاعرا فقط، كما قصدها في صباه شاعرا فقط.

وكان هدف المتنبي الوصول الى الخليفة العباسي (المطيع لله)، والبقاء في معيته. ولو انه وصل اليه لاكتفى به عن البويهيين. وربما أراد الانتصار على بغداد والخلافة العباسية التي لم تفتح الباب له سابقاً لعدم شهرته، وظنَّ انها ستفتح أقصى ذراعيها لاحتضانه. وكان عليه أن يجتاز (باب الخليفة) للوصول اليه، وهو (الوزير المهلبي) فيمدحه أولا. ولكن المتنبي لم يمدح الوزير المهلبي؛ اذ أبت نفسه العالية أن يمدح المجون والسخافة ممثلة بالمهلبي وحاشيته. فأغلق على نفسه باب الخليفة الى الابد. بل

ان الوزير المهلبي أضرى عداء ادباء بغداد للمتنبي، فحاربوه بشتى الصور تشفيا من نجاحه وشهرته التي غطت عليهم.

بعد رحلته الفاشلة الى بغداد رجع الى الكوفة في شعبان سنة ٣٥٢هـ. فمكث في الكوفة سنة وخمسة أشهر توجه بعدها الى (أرّجان) في فارس بدعوة من (ابن العميد) في المحرم سنة ٣٥٤هـ فوصلها في صفر من السنة نفسها. ولم يكن المتنبي راغبا في قصد ايران ومدح البويهيين؛ بدليل انه بعد يأسه من بغداد والخليفة العباسي لم يكمل مسيره الى ايران والبويهيين. وقد ذكرت المصادر انه قصد ايران (مراغما) بمعنى انه وجد في ايران متسعا له، وتحديا لأعدائه. وكان الخليفة العباسي المطيع لله ألعوبة بأيدي البويهيين، وكان من الهوان أن الحاشية تتحكم به، والا فكيف فاته أن يقدّم دعوة لزيارة أكبر شاعر معاصر له (المتنبي) وقد وجه له الدعوة من هم أقل منه شأنا واسما.

وقد اختار المتنبي دعوة ابن العميد على دعوة الصاحب بن عباد الذي وصفه بـ(الغُليّم)؛ كون ابن العميد أشهر الكتاب في زمنه، وقد قيل (بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد) فلا بأس أن يلتقي الجبلان: جبل الشعر وجبل النثر. كما ان ابن العميد كان كيّسا، ولم ينضم الى الادباء الذين عادوه وهارشوه، وان كان يحسده، واعترف انه اراد تخميله فلم يستطع، كان ذلك قبل ان يزوره في (أرّجان)، ولكن بعد أن زاره عظَّمه وعظَّم قدره. وقد لبث المتنبي لدى ابن العميد شهرين من صفر وحتى ربيع الاخر. ولأول مرة يعيش المتنبي في كنف أديب وناقد كبير. وقد أوصل ابن العميد الى المتنبي (كان يبلغني شعرك بالشام والمغرب وما سمعت دونه، فلم يحر جواباً). ونحس في (قصيدة النيروز) حرج الشاعر أمام الناقد، وقبوله حكمه فيه، ولكن في نفسه كلام لا مجال لقوله:

هَل لِعُذري عِندَ الهُمامَ أَبي الفَضلِ قُبولٌ سَوادُ عَيني مِدادُه
أَنا مِن شِدَّةِ الحَياءِ عَليلٌ مَكرُماتُ المُعِلِّهِ عُوّادُه
ما كَفاني تَقصيرُ ما قُلتُ فيهِ عَن عُلاهُ حَتّى ثَناهُ اِنتِقادُه

إِنَّني أَصيَدُ البُزاةِ وَلَكِنَ أَجَلَّ النُجومِ لا أَصطادُه
رُبَّ ما لا يُعَبِّرُ اللَفظُ عَنهُ وَالَّذي يُضمِرُ الفُؤادُ اِعتِقادُه
ما تَعَوَّدتُ أَن أَرى كَأَبي الفَضلِ وَهَذا الَّذي أَتاهُ اِعتِيادُه
إِنَّ في المَوجِ لِلغَريقِ لَعُذراً واضِحاً أَن يَفوتَهُ تَعدادُه

ومثله قال عضد الدولة في شعر المتنبي (جيد شعره في المغرب) فأجابه المتنبي مغالطا (الشعر على قدر البقاع). وللحقيقة ان شعر المتنبي في الشام ومصر كان (الفن للثورة) وكتبه المتنبي بكل رغبة وقوة فن امتلكها، أما شعره في ايران فكان (الفن للفن) وكتبه برغبة وقوة فن أقل بكثير. ونجد المتنبي لأول مرة يبدع في وصف الطبيعة (شِعب بوان) وصفا فنيا رائعا.

ثم جاءته دعوة من عضد الدولة البويهي الى شيراز، في ربيع الاخر ٣٥٤هـ. فبلغها في شهر جمادي الأولى. وبعد ثلاثة اشهر قضاها عند عضد الدولة غادر شيراز في شعبان عائداً إلى العراق يريد بغداد فالكوفة، وفي الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٥٤هـ في طريق العودة في النعمانية قرب دير العاقول، قتل المتنبي فهوى به جبلان: جبل إنساني قلَّ نظيره، وجبل شعري لا نظير له.

مذهبه

أختُلفَ اختلافا شديداً في (مذهب المتنبي)، فقال البعض انه (شيعي)؛ لانه ذكر في شعره مصطلحات الشيعة مثل (الوصي) (النواصب) كما ذكر (المهدي المنتظر). واستدل محسن الأمين العاملي على تشيعه لكونه كوفيا، وكون محلته كندة شيعية. وذهب البعض الى انه (معتزلي) لانه ذكر بعض مصطلحات المعتزلة كقوله:

فَتَمليكُ دِلَّيرٍ وَتَعظيمُ قَدرِهِ شَهيدٌ بِوَحدانِيَّةِ اللهِ وَالعَدلِ

يشير إلى قول المعتزلة في (التوحيد والعدل) وفعل الصالح والأصلح كما يقول (عزام). وذهب البعض الى انه يميل الى المتصوفة لأنه (يستعمل أساليبهم وكلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة، والرمز والايحاء، والاكثار من حروف الجر). ونسب الى مذاهب ضالة ومنحرفة، ذكر الاصفهاني (أنه وقع في صباه إلى أحد المتفلسفة وهو أبو الفضل الكوفي فهوسه واضله كما ضل). وذكروا ان في شعره شيئا من هذه المذاهب مثل: السفسطائية، والتناسخ...الخ. ورأى طه حسين في قوله:

نورٌ تَظاهَرَ فيكَ لاهوتِيَّةً فَتَكادُ تَعلَمُ عِلمَ ما لَن يُعلَما

(رأياً صريحاً في الحلول)، وهو القول بأن (الله سبحانه يحلُّ في الأجسام). واتهمه آخرون بأنه (ليس على مذهب) أو (لا يوقف له على مذهب).

نقول:

ما يخص الدين، المتنبي كان دنيويا متخففا من الدين، فقد جعل همه الاوحد طموحه الى الثراء والملك، وقد ذُكر انه (ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن). وتدل أبيات من شعره على عدم التزامه الديني، ففي مرة شرب الخمر لان أحدهم حلف عليه بالطلاق أن يشربها فقال:

وَأَخٍ لَنا بَعَثَ الطَلاقَ أَلِيَّةً لَأُعَلِّلَنَّ بِهَذِهِ الخُرطومِ
فَجَعَلتُ رَدّي عِرسَهُ كَفّارَةً عَن شُربِها وَشَرِبتُ غَيرَ أَثيمِ

فأفتى من نفسه بجواز شربه الخمر لأنه سيمنع طلاق الرجل لزوجته! ومرة سهر مع أحد الامراء وهو يشرب الخمر من الليل الى الفجر، وحين أذَّن المؤذن لصلاة الفجر خجل الامير ووضع الكأس، فاعتذر المتنبي له شعرا رادا على المؤذن بأن الامير غير ناس لحقوق الله ولا قاسي القلب من ضعف الايمان. وحتما لم ينهض المتنبي بعد ذلك الى الصلاة، بل بقي مع الامير وهو يواصل الشرب بعد فاصل الاذان، قال المتنبي:

أَلا أَذِّن فَما أَذكَرتَ ناسي وَلا لَيَّنتَ قَلباً وَهوَ قاسِ

وَلا شُغِلَ الأَميرُ عَنِ المَعالي وَلا عَن حَقِّ خالِقِهِ بِكاسِ

ولا نجد في شعر المتنبي تأثرا او اقتباسا من القرآن المجيد.

أما مذهبه الديني، فعلينا التعرف الى الكوفة جيدا، التي ولد وترعرع فيها، وخرج منها وعاد اليها لولا المنية:

ولد المتنبي في الكوفة، في محلة تسمى (كندة)، وترعرع فيها وأثرت في تنشئته وتكوينه، وتركت فيه آثارا جوهرية. منها الفصاحة والميل الى الاصالة في السلوك والفن، والحقد على العباسيين، كما ان الكوفة وسمته بلقب (المتنبي) الذي صار دالة عليه أكثر من اسمه، وحمله طيلة حياته وسيحمله الى الابد.. والكوفة (عاصمة التشيع) ومنطلق وشرارة الثورات العلوية ضد العباسيين.

ويظهر من شعره انه كان يعشق الكوفة، ويحن الى أيامه ومرابع صباه فيها، ويتحسر على تركها، مما يعني انه كان مجبرا على ذلك. ويبدو حضور الكوفة في روحه ووجدانه أينما حل في قوله:

أَمُنسِيَّ السُكونَ وَحَضرَمَوتا وَوالِدَتي وَكِندَةَ وَالسَبيعا

ف(السكون وحضرموت وكندة والسبيع) أماكن في الكوفة كان يألفها المتنبي.

والكوفة مرتكز وانطلاق المتنبي في طموحه وشعره، فقد خرج المتنبي من الكوفة لا يعرف وجهته تماماً، وبعد رحلة عمر محفوفة بالطموح والاخفاق، عاد الى الكوفة لا يعرف وجهته تماماً. وممكن رسم خارطة جيلان المتنبي: (خرج من الكوفة الى بغداد

منطلقا الى الشام جنوبا، ثم إلى الأناضول شمالا، ومن القاهرة غربا إلى شيراز شرقاً، ثم الى بغداد فالكوفة عائدا فمقتولا).

والكوفة مدينة الامام علي وعاصمة التشيع، وأهلها شعبه المخلص الى النخاع، كانت وتظل. ومسيرة الامام الحسين الى الكوفة ليست اعتباطا بل بـ(قدر وتقدير)، فليس مدينة ضامنة لنصرته ونصره غير الكوفة. وقد زادت مسيرته تشيع الكوفة عمقا وحبا لآل البيت وتمحُّضاً لهم. وبعد مأساة الطف صارت الكوفة منطلق الثورات العلوية في الدولة الاموية والعباسية، والكوفيون القوة الناصرة لها المنتصرة على الدولتين، شرط الاخلاص لأهل البيت ورفع شعار (الدعوة الى الرضا من آل البيت). فاذا رفع الثائر العلوي هذا الشعار نصره الكوفيون وانتصر حتما، واذا تخلى عن هذا الشعار تفرقوا عنه وانهزم حتما.

فزيد بن علي حين رفع شعار (الرضا من آل محمد) نصره الكوفيون فملك الكوفة وهزم الامويين، ولكنه حين غيَّر الشعار و(دعا الى نفسه) تخلى عنه الكوفيون، فتقلص اتباعه من (مئة الف) إلى (ثمانية عشر) فقط. وقال وهو يعدو في شوارع الكوفة (أين الناس؟ فعلوها حسينية)! واعلن ابو السرايا الثورة داعيا الى ابن طباطبا عند ضريح الامام الحسين وناصره الكوفيون، فاحتل الكوفة وواسطا والبصرة والاحواز والحجاز كله، وقارب ان يقضي على الدولة العباسية، ولكنه قتل ابن طباطبا العلوي الذي ارتضاه الكوفيون بوصفه (الرضا من ال محمد)، فتركه الكوفيون ففشلت ثورته وقتله العباسيون.

ولكن الكوفة في العصر العباسي اختلفت عنها في العصر الاموي. كان اختيار بناء بغداد في هذا الموضع ليس لأسباب صحية فقط كما اشيع، بل لأسباب سياسية عسكرية. فجعلوا مساحة بغداد اضعاف مساحة الكوفة، وجعلوا طريقا واحدا من بغداد يخترق الكوفة الى البصرة. ولم يجعلوا للكوفة طريقا على الشرق؛ فالذي يريد الذهاب من ايران وواسط وغيرها الى الكوفة عليه ان يقصد بغداد أولا ثم يذهب منها الى الكوفة، وهذا ما اضطر اليه المتنبي في طريق عودته من ايران الى الكوفة، فتركوا شرق الكوفة

مجاهيل وصحارى ومهالك مانعة منها، مما جعل بعداد تهيمن على الكوفة وتضعفها لإحباط الثورات العلوية.

فليس للثائر العلوي اذا دخل الكوفة غير ضمان نصرة أهلها، وضمان نصرة أهلها أن يدعو الى الامام المعصوم أو الرضا من آل محمد الذي يقبلون به، كما حدث للثائر (ابراهيم بن الحسن) أخي محمد ذي النفس الزكية، وكان زيديا، فحين دخل الكوفة سألوه عن مذهبه فقال أنا زيدي، فاعتذروا عن نصرته فعجل في الخروج من الكوفة لكي لا يلحق به جيش الخلافة، ولكن سرعان ما احاط به جيش الخلافة في باخمرى وقتلوه. وفضلا عن هيمنة بغداد على الكوفة، فان العباسيين حاربوا (بؤرة الثورة) وهو ضريح الامام الحسين، فمنعوا زيارته، وقام المتوكل بهدمه ومحو أثره.

والكوفة لم تعد شيعية خالصة في العصر العباسي اذ سكنها الكثير من أهل السنة. واذا نظرنا الى قائمة علمائها سنجد غالبيتهم من السنة، مثل: سفيان الثوري (١٦١هـ)، شعبة بن الحجاج (١٦٠ هـ)، وكيع بن الجراح (١٩٧هـ)، أبي حنيفة النعمان (١٥٠هـ)، الفراء (٢٠٧هـ)، الكسائي (١٨٩هـ)، ثعلب (٢٩١هـ)، أبي جعفر الرؤاسي (١٨٧هـ)، المبرّد (٢٨٥هـ)، ابن أبي دؤاد (٣١٦هـ)، ابن ابي حاتم الرازي (٣٢٧هـ)، ابن الجنيد (٢٩٧هـ)، ابن درستويه (٣٤٧هـ). فكون المتنبي كوفيا في القرن الرابع العباسي لا يحسم انه شيعي. ويصح انه علوي لتحسم الكوفة تشيعه. وورد عن جدته انها (من صلحاء الكوفيات) وليس (العلويات). ولا يؤكد تشيعه كونه رضع مع محمد بن عبيد الله المشطّب العلوي.

ولكننا نحسم مذهبه من شعره ومواقفه:

ليس في شعر المتنبي أي اشارة الى الشيخين، أو أهل السنة، أو أفكارهم ومصطلحاتهم، مما يعني بُعدَه التام عن أن يكون سنيا. وبالمقابل ذكر المتنبي صراحة الامام علي، وأفكار الشيعة، ومصطلحاتهم، وجاء ذلك في قصيدته التي مدح بها ابا القاسم طاهر بن الحسين العلوي:

نَصَرتَ (عَلِيّاً) يا اِبنَهُ بِبَواتِرٍ مِنَ الفِعلِ لا فَلٌّ لَها في المَضارِبِ

وَأَبهَرُ آياتِ التِهامِيِّ أَنَّهُ (أَبوكَ) وَأَجدى مالَكُم مِن مَناقِبِ
إِذا لَم تَكُن نَفسُ النَسيبِ كَأَصلِهِ فَماذا الَّذي تُغني كِرامُ المَناصِبِ
إِذا عَلَوِيٌّ لَم يَكُن مِثلَ طاهِرٍ فَما هُوَ إِلّا حُجَّةٌ لِـ(النَواصِبِ)
هُوَ (اِبنُ رَسولِ) اللهِ وَاِبنُ (وَصِيِّهِ) وَشِبهُهُما شَبَّهتُ بَعدَ التَجارِبِ

وكان يحب الامام علي حبا عظيما، وله أبيات في مدحه:

يا سيفَ دولة ذي الجلال ومن له خيرُ الخلائف والأنام سَميُّ
أوَمَا ترى صفين كيف أتيتها فانجاب عنها العسكر الغربيُّ
فكأنه جيش ابن حرب رعته حتى كأنك يا عليُّ عليُّ

وقوله:

وتركتُ مدحي للوصيِّ تعمُّداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطالَ الشيءُ قام بنفسه وصفاتُ ضوء الشمس تذهبُ باطلا

ولا نرى صحيحا قول يوسف بن يحيى الحسني اليماني في كتابه (نسمة السحر بذكر من تشيَّع وشَعَرَ وحكى) أن للمتنبي قصائد تسمى (العلويات) ومنها قصيدة في عيد الغدير. وما ذكرناه له بحق الامام علي صحيح وان كان من مزيدات الديوان، وقد رواها الواحدي. فهو شيعي لا جدال في ذلك. ولكن هل هو (شيعي زيدي) أم (شيعي إمامي)؟

الزيدية تؤمن بإمامة: علي فالحسن فالحسين فعلي السجاد (عليهم السلام) وتقف عند الامام محمد الباقر فتتركه الى (زيد بن علي) ولا تعترف بإمامة ما بعد الامام محمد الباقر. وتؤمن بالإمام المهدي ايمان اهل السنة بأنه (من آهل النبي ويخرج في زمانه) فلا تؤمن بالغيبة. وشخصية زيد ثورية لا تقبل بالقعود على الظلم، لذا جادل زيد أخاه الباقر في الإمامة ووجوب خروج الإمام بقوله (ليس الإمام من أرخى عليه ستره، إنما الإمام من أشهر سيفه. فقال له الباقر: على مقتضى مذهبك والدك ليس بإمام، فانه لم يخرج قط، ولا تعرض للخروج). والمتنبي معجب بزيد يجعله إمامه ويؤمن تماما بأفكاره.

وقد وجدناه يعلن زيديته ليشرعن ثوراته في الشام ولا سيما ثورته في حمص؛ فقد ادعى انه (علوي زيدي). والصحيح انه (زيدي فقط) وثار وفق الفكر الزيدي.

وقد تناول المتنبي شخص وفكرة الامام المهدي تناولا زيديا لا اثني عشريا. فالمتنبي لا يؤمن بالغيبة، ويؤمن كالزيدية بأنه يولد في وقته، وانه يقلب الامور قلبا وينتصر على الباطل ويصحح الخطأ. ففي قصيدته التي مدح بها ابن العميد استحضر المتنبي فكرة المهدي من وجهة النظر الزيدية قائلا:

فَإِن يَكُنِ المَهدِيُّ مَن بانَ هَديُهُ فَهَذا، وَإِلّا فَالهُدى ذا فَما المَهدي
يُعَلِّلُنا هَذا الزَمانُ بِذا الوَعدِ وَيَخدَعُ عَمّا في يَدَيهِ مِنَ النَقدِ
هَلِ الخَيرُ شَيءٌ لَيسَ بِالخَيرِ غائِبٌ أَمِ الرُشدُ شَيءٌ غائِبٌ لَيسَ بِالرُشدِ

فبينما تقول الشيعة الاثناعشرية بفكرة (انتظار المهدي)، وانه يخرج حين يحين زمان ظهوره، يقول المتنبي بفكرة الزيدية وهو (خروجه في وقته) ثم يطرح (الظهور الحالي للمهدي) فليخرج اذن الان وليكن (ابن العميد) او غيره. ويرى ان الانتظار خداع وتضليل من الزمان فهو يسوّف بظهور المهدي مع انه قادر أن يعطيه الان نقدا، ثم يقول ظهور مهدي الان كظهور المهدي مستقبلا من ناحية الخير والرشد. وفكرة المتنبي تريد اصلاح الامور فورا والعمل الجاد عليه وعدم التهرب منه. وقد استغل المتنبي شخص (ابن العميد) ليطلق آخر صرخة أمل لمشروعه التغيير، عبر شخصية الامام المهدي وقراءتها قراءة زيدية ثائرة.

وبهذا يتأكد بالأدلة أن المتنبي (شيعي زيدي).

لقبه

حصل أبو الطيب بجدارة على لقبه (المتنبي) في وقت مبكر، حين تنبه الكوفيون على صبي نادر الفطنة، خارق الذكاء، عجيب الفصاحة. وكان يتنبأ بأمور فتحدث، وقد روى البديعي شيئاً من ذلك. وفي شعره رصدنا خمس نبوءات. فوقر في أذهان الكوفيين انه بمثابة من نبئ بها ؛ وهذا هو المعنى العربي الفصيح لكلمة (متنبئ) (من نبأته فتنبأ فهو متنبئ وبالتخفيف متنبي). والكوفة أفصح العراق؛ ففيا نشأت مدرسة النحو الكوفية القائمة على السماع أو (ما قالته العرب) وفيها عاش أعظم علماء العربية كالمبرد وثعلب، فمن تلك البيئة الفصيحة ومن فصاحتها انطلق لقب الشاعر المتنبي.

وبعد ثوراته الكثيرة وليس ثورته – كما تقول المصادر – حُوّر لقبه من المعنى العربي (الذي نبئ) الى المعنى المولَّد (دعي النبوة) لغرض تسقيطه في اعين الناس، لاسيما ان المعنى المولد صار اشهر من المعنى العربي، مع ان الذي يدَّعي النبوة يسمى (كذابا) لذا لقب النبي محمد (ﷺ) مسيلمة حين ادعى النبوة بـ(مسيلمة الكذاب) وليس (مسيلمة المتنبي)، قال سيبويه: (ليس أحد من العرب الأوّل يقول تنبأ مسيلمة).

وذكر ابن العديم ان المتنبي اعترف بأن الكوفيين اطلقوا عليه لقب المتنبي صبيا (كان يذم أهل الكوفة لأنهم يضيّقون على أنفسهم في كل شيء حتى في الأسماء فيتداعون بالألقاب، ولما لقبّتُ بالمتنبي ثقل ذلك عليَّ زماناً ثم الفته). وقال الزبيدي في (تاج العروس) (وقيل: إنما لقب به لقوة فصاحته وشدة بلاغته وكمال معرفته) وأورد ابن رشيق في العمدة (أن أبا الطيب سمي متنبياً لفطنته).

وعلى الرغم من محاولة اعدائه الغض منه بتحوير لقبه من المعنى الايجابي الى السلبي، الا انه صار لقب شهرته العظيم الذي غطى على اسمه، ولقب مجده الشعري الخالد.

ونبوءات المتنبي التي رصدناها في شعره خمس، هي:

١- أولى نبوءات المتنبي تطالعنا في شعر صباه، وهي تلك التي تنبأ بها بصيرورته وهو صبي لا أثر له ولا خطر فكان تصويره بالحجم الذي أصبح عليه ولم يكذب، كما تحقق ما قاله من جيلانه في الأقطار وركوبه الأخطار. قال المتنبي:

قِفا تَرَيا وَدقي فَهاتا المَخايِلُ وَلا تَخشَيا خُلفاً لِما أَنا قائِلُ
تُحَقِّرُ عِندي هِمَّتي كُلَّ مَطلَبٍ وَيَقصُرُ في عَيني المَدى المُتَطاوِلُ
كَأَنّي مِنَ الوَجناءِ في ظَهرِ مَوجَةٍ رَمَت بي بِحاراً ما لَهُنَّ سَواحِلُ
يُخَيَّلُ لي أَنَّ البِلادَ مَسامِعي وَأَنِّيَ فيها ما تَقولُ العَواذِلُ
وَمَن يَبغِ ما أَبغي مِنَ المَجدِ وَالعُلا تَساوى المَحايِي عِندَهُ وَالمَقاتِلُ

قال الواحدي في شرح هذه الأبيات:" يقول لصاحبيه: اصبرا تريا من أمري شأناً عظيماً فقد ظهرت مخايله وما يشهد لي بتحقيق ما كنتُ أعدكما من نفسي.. وذكر انه (لا يخلف وعده).

٣- نبوءته الثانية كانت في احد ممدوحيه وهو أبو علي هارون بن عبد العزيز الاوراجي؛ فقد تنبأ بموته القريب وهو يجلس معافى على عرشه. قال المتنبي:

لا تَكثُرُ الأَمواتُ كَثرَةُ قِلَّةٍ إلا إذا شَقِيَت بِكَ الأَحياءُ

أي لا يبين النقص في الناس جراء الموت إلا إذا متَّ أنت. وهو بيت لا يصلح للمدح ولكنه قفز على لسان المتنبي، فان الملوك يخاطبون بطول العمر ودوام الملك لترف حياتهم وحرصهم المتناهي عليها، قال العكبري: (وهذا فاسد.. لأنه لا يخاطب الممدوح بمثل هذا). ولا يفسر هذا البيت بقلة ذوق أو عدم دراية بفن المدح فالمتنبي سيد القصيدة الرسمية في زمانه ولكنها نبوءة؛ قال ابن سيدة: (أخبرني بعض أهل بغداد: إن الممدوح بهذه القصيدة أدركته الوفاة بعد إنشاد المتنبي إياه بأيام قليلة فكان يتقلب على فراشه ويردد هذا البيت). وقال العكبري: (قيل إن الممدوح استعاد هذا البيت واخذ يبكي حتى مات). وقال أبو علي السلمي: (عدتُ أبا علي الاوراجي في علته التي مات فيها فاستنشدني (لا تكثر الأموات..)، فلم أزل انشده ويستعيده حتى مات).

٤- النبوءة الثالثة من نبوءاته الخطيرة؛ تنبأ فيها بالاحتلالات المسيحية؛ الحروب الصليبية في التاريخ القديم وقد وقعت بعد موته بـ(١٣٥) سنة، والاحتلال البريطاني والأمريكي في التاريخ الحديث؛ وكان قد كتب إلى سيف الدولة من العراق مذكراً بأهمية محاربة الأمير للروم حفاظا على الأمة المسلمة لأنهم بعده سيقعون فريسة الاجتياح المسيحي الشامل. قال المتنبي:

فَخَرّوا لِخالِقِهِم سُجَّداً وَلَو لَم تُغِث سَجَدوا لِلصُلُبْ
أَرى المُسلِمينَ مَعَ المُشرِكين إِمّا لِعَجزٍ وَإِمّا رَهَبْ
وَأَنتَ مَعَ اللَهِ في جانِبٍ قَليلُ الرُقادِ كَثيرُ التَعَبْ
كَأَنَّكَ وَحدَكَ وَحَّدتَهُ وَدانَ البَرِيَّةُ بِابنِ وَأَبْ

٥- ونبوءته الرابعة أغرب نبوءاته وأعظمها على الإطلاق فقد تجاوز بها زمانه إلى زماننا فوصف أسلحتنا الحربية بدقة كمن قد شاهد ساحة حرب معاصرة عياناً. فقال:

وَيَطعَنُ الخَيلَ كُلَّ نافِذَةٍ لَيسَ لَها مِن وَحائِها أَلَمُ

الخيل: الفرسان. والوحاء: السرعة.يريد: إن طعنته لشدة سرعتها لا يشعر المطعون معها بالألم حتى يموت. وهذا لا يتحقق بأسلحة زمانه كالسيف والرمح والنبل وسواها لان المطعون بها يتألم حتما.أما السرعة التي تحجب الألم إلى الموت فلا تصح إلا مع أسلحتنا الحديثة كالشظايا والإشعاع والعصف.فقد حدثت مشاهد في الحروب الحديثة قطعت فيها الرأس وبقي الشخص يمشي لفترة وجيزة ثم سقط ميتاً دون المرور بزمن الألم لشدة سرعة الشظية. وتكمن عظمة هذه النبوءة في أنها ذكرت أن السرعة تحجب الألم في زمن لا يستوعب هذه النظرية ولا يجد لها تطبيقاً ولذا قال ابن جني: (لم توصف الضربة بوحاء أسرع من هذا).

٦- وأخيراً تنبأ المتنبي بمقتله في الصحراء من قبل أعداء يهاجمونه في الطريق وذكر الاسم الصريح للمخطط وهو (فناخسرو عضد الدولة)، قال:

وَأَيّا شِئتِ يا طُرُقي فَكوني أَذاةً أَو نَجاةً أَو هَلاكا

فلأنه (بيت – نبوءة) فقد اختار ورتب كلماته بدقة شديدة، في الشطر الثاني من البيت الأول ليس ثمة خيارات ولو كانت لقال (نَجاةً أَو أَذاةً أَو هَلاكا) فيكون تدرجاً منطقياً يسمح به الوزن ولكن بقصدية جعل النجاة بين الاذاة والهلاك إشارة إلى استحالته، وليس في ذلك ما يدعو إلى طيرة عضد الدولة، قال عضد الدولة (تطيرت عليه من ترك النجاة بين الأذاة والهلاك). وان اختيار كلمة (هلاك) فيها جناس مقصود مع (المهلكة) وهي الصحراء حيث قتل.

ونحن نعد نبوءات المتنبي من الفطنة وليس تكلف الغيب.

أخلاقه وصفاته

كان المتنبي كبير النفس، عظيم المهمة، محترم القول والفعل، جادَّاً بعيدا عن اللهو والسخف في حياته وشعره. ولكن شوَّهه ادباء العراق؛ لان تاريخ المتنبي كُتب في بغداد بأقلام مأجورة حرصت على إرضاء الوزارة العباسية المعادية للمتنبي. وقد تحامل عليه أغلب الكتاب؛ الأصفهاني والثعالبي والصاحب بن عباد وابن وكيع التنيسي والعميدي والبديعي وغيرهم. ومما الصق به:

الجين والضعف؛ قال الأصفهاني: (قال بعض من شاهده، انه لم تكن فيه فروسية، وإنما كان سيف الدولة سلمه إلى النخاسين والرواض، فاستجرأ على الركض والحضر، أما استعمال السلاح فلم يكن من عمله)، ولذلك زعموا أنه (هرب من المواجهة الأخيرة في دير العاقول على الضد مما يدعيه في شعره من بطولة).

وقالوا كان **(بخيلا جدا)**؛ قال ابن فورجة: (كان المتنبي داهية، مر النفس، شجاعاً، حافظاً للأدب، عارفاً بأخلاق الملوك، ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه على المال)، وتورد المصادر قصصاً متنوعة عن بخله؛ كقصة البطاطيخ في سوق بغداد، وحكاية الخوارزمي عن دنانير الصلات، وحكاية أجرة الغسال التي يرويها الأصفهاني. . . وغيرها.

ومما رمى به أيضاً **(التعالي والتعاظم)**. وهم يوردون حكايات عن ذلك. ولعل طه حسين انطلق منها في قوله: "كان المتنبي (مغروراً). واتهم المتنبي بكثير غير ذلك مما هو مجانب للحقيقة والواقع في اغلبه. ونحن نعيد اليه أخلاقه وصفاته الحقيقية لتثبت في سمع التاريخ، ويعلم الناس الحقيقة المتنبية كاملة.

القوة والشجاعة:

كان المتنبي طويل القامة، قويّ الجسم، تام الرجولة، بادية عليه مخايل الشجاعة وخيلاء البطولة. وقد دل على ذلك أشعاره، والصحيح من سيرته. فيدلل على طوله قوله:

طَويلُ النِجادِ طَويلُ العِمادِ طَويلُ القَناةِ طَويلُ السِنانِ

فطول النجاد، وطول عماد الخيمة، وطول الرمح، وطول السنان، كلها تدل على طوله، كما تدل على قوة حامل السيف والرمح الطويل. وفي ديوانه أبيات كثيرة تدل على قوة شكيمته وشجاعة منقطعة النظير مثل:

أَنا اِبنُ اللِقاءِ أَنا اِبنُ السَخاءِ أَنا اِبنُ الضِرابِ أَنا اِبنُ الطِعانِ
أَنا اِبنُ الفَيافي أَنا اِبنُ القَوافي أَنا اِبنُ السُروجِ أَنا اِبنُ الرِعانِ
حَديدُ اللِحاظِ حَديدُ الحِفاظِ حَديدُ الحُسامِ حَديدُ الجَنانِ
يُسابِقُ سَيفي مَنايا العِبادِ إِلَيهِم كَأَنَّهُما في رِهانِ

وقال:

وَمَطالِبٍ فيها الهَلاكُ أَتَيتُها ثَبتَ الجَنانِ كَأَنَّني لَم آتِها
وَمَقانِبٍ بِمَقانِبٍ غادَرتُها أَقواتَ وَحشٍ كُنَّ مِن أَقواتِها

وقال:

سيصحب النصل مني مثل مضر به وينجلي خبري عن صمة الصممِ
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحمِ
لا تركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدمِ

وذكرت المصادر ما يؤكد شجاعة المتنبي، وعدم خوفه من قتال ليس الافراد بل الجماعات. فقد ذكرت ان ابا الفرج السامري حين وقعت الجفوة بينه وبين سيف الدولة، قال له (دعني اسعى في دمه = أي أقتله) فأذن له. فارسل هذا السامري جماعة لقتل المتنبي، (ولما رأى أبو الطيب السلاح تحت ثيابهم، سل سيفه وجاءهم حتى اخترقهم، فلم يقدموا عليه. وأرسل أبو العشائر عشرة من خاصته وجاء رسوله إلى أبي الطيب، فسار حتى قرب منهم، فضرب أحدهم يده إلى عنان فرسه، فسل أبو الطيب السيف، فوثب الرجل امامه، وتقدمت فرسه الخيل، وعبرت قنطرة كانت بين يديه واجترهم إلى الصحراء، فأصاب أحدهم نحر فرسه بسهم، فانتزع أبو الطيب السهم ورمى به، واستقلته

الفرس، وتباعد بهم، ليقطعهم عن إمداد إن كان لهم. ثم كرَّ عليهم بعد أن فني النشاب، فضرب أحدهم وقطع الوتر وبعض القوس، وأسرع السيف إلى ذراعه، فوقفوا عنه واشتغلوا بالمضروب، فسار وتركهم. فلما يئسوا منه، قال له أحدهم في آخر الليلة: (نحن غلمان أبي العشائر). فهؤلاء رجال يمثلون دولة ولم يأبه لهم.

وفي هروبه من مصر، سار بطريق طويلة من مصر الى سوريا عبر صحراء سيناء وهي مختلفة التضاريس بين جبال ورمال ومنحدرات، وليس على الطريق المعبدة المعهودة تجنبا لرجال أمن كافور، بل بطرق غير معبدة وكلها مجاهيل وصحارى تخلو من الماء وملآى بالسباع والوحوش. ولاستحالة وصوله وسلامته قال بعض المصريين (إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض) وقد وقعت له احداث كثيرة من لصوص ومن طامعين به. فحين خرج إلى ماء يعرف بنخل في التيه لقي عنده في الليل ركبًا وخيلا فقاتلوه فأخذهم وتركهم. وحاول عبيده أن يقتلوه ويسرقوه فأحبط محاولتهم،، وسلّ العبد السيف، فضرب رسن فرس المتنبي، فضرب أبو الطيب وجه العبد فقسمه نصفين. واحداث كثيرة وقعت له في تلك المجاهيل فما حقل بها وبأحد. وقد مرّ قوله ابن فورجة (كان المتنبي داهية، مر النفس، شجاعاً).

وذكرت الروايات في مقتله انه رفض ان (يسير في خفارة أحد) وحين عرض عليه موضوع حمايته (غضب غضبا شديدا). وقد أبدى في معركة مقتله في النعمانية بطولة نادرة تضارع بطولة الفرسان والابطال، وقد ذكرت بعض المصادر (ان المهاجمين احتاجوا الى امداد). وسنعرض لها عند كلامنا على مقتله. فهذا كله يدل على شجاعة المتنبي وقوته الجسدية والروحية.

ويتصل بشجاعته إباؤه الضيم ورفضه الخضوع لاحد وعدم قبوله الشيء رغما عنه. فكان يترك الامراء اذا ضايقوه او ازعجوه، فقال لابن العميد حين عرض عليه الذهاب الى عضد الدولة (إني ملقّى من هؤلاء الملوك: أقصد الواحد بعد الواحد، وأملّكهم شيئاً يبقى ببقاء النيربين، ويعطوني عرضاً فانياً؛ ولي ضجرات واختيارات؛ فيعوقونني عن

مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه)! وعندما أجبره (ابن كيغلغ) على مدحه هجاه بدل المدح. وله ابيات كثيرة في اباء الضيم.

الألفة والوداد:

كان المتنبي ألوفا ودودا ذا قلب رقيق المودة، ونفس متواضعة تطفح بحب الناس؛ فحين مرض في مصر كان يعوده أحد جيرانه المصريين ويساعده، وحين شُفي انقطع هذا الجار عن عيادته، فكتب اليه (وصلتني وصلكَ الله معتلاً، وقطعتني مُبِلَّاً، فإن رأيتَ أن لا تُحببَّ العلة إليَّ، ولا تكدر الصحة عليَّ، فعلتَ ان شاء الله تعالى). وذكر طبعه الودود شعرا بأنه لشدة تمكن تلك العادة منه لو اعيد الى الشباب وهو أغلى الامنيات، لبكى على شيخوخته:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقتُ شيبي موجعَ القلب باكيا

وهذا جعله يصور لحظات التوديع بأرق وصف وأبدعه:

إني لأجبن من فراق أحبتي وتحسُّ نفسي بالحِمام فأشجُعُ

وحين ارسل ابو العشائر جماعة ترميه بالسهام لم يحقد على ابي العشائر، بل قال ان السهام هيَّجت شوقي اليه:

وَمُنتَسِبٍ عِندي إِلى مَن أُحِبُّهُ وَلِلنُبلِ حَولي مِن يَدَيهِ حَفيفُ

فَهَيَّجَ مِن شَوقي وَما مِن مَذَلَّةٍ حَنَنتُ وَلَكِنَّ الكَريمَ أَلوفُ

وقال لأحد الأصدقاء حين جاء يعاتبه قائلاً: سلمت عليك فلم ترد عليَّ الجواب:

أنا عاتبٌ لتعتبكْ متعجبٌ لتعجبكْ

اذ كنتُ حين لقيتني متوجعاً لتغيبكْ

فشغلتُ عن ردِّ السلام وكان شغلي عنكَ بكْ

وقال في وداع صديقه الأمير:

ماذا الوداع وداع الوامق الكمِدِ هذا الوداع وداع الروح للجسدِ

عقدة الحسد:

أبان شعر المتنبي عن قلقه، وخوفه من الحسد. وقد وردت لفظة الحسد مع مشتقاتها أكثر من (ستين مرة) في شعره. أما معاني الحسد فهي أوسع من أن يوقف عليها؛ فأعداؤه وذاموه ومهجووه كلهم في نظره حساده حتى اللئام وهذا يفسر تسمية ابنه (محسداً).

السخاء

لم يكن المتنبي بخيلا؛ في بداية حياته كان فقيرا معدما، وليس عدلا أن يسمى الفقير اذا حرص على المال بخيلا. وقد أنفق المتنبي على ثوراته في حمص وكوتكين وغيرها ، وانقلاباته في حلب ومصر أموالا طائلة جمعها من المدح. فالثورات تحتاج الى المال لاصطناع الرجال. وهذا الانفاق لأجل قضية عامة سامية تؤهل المتنبي أن يسموه انصافا (أبا الكرم). وقد علل المتنبي هذا في قوله:

وَما كُلُّ بِمَعذورٍ بِبُخلٍ وَلا كُلُّ عَلى بُخلٍ يُلامُ

فقد وجد المتنبي في المال الوسيلة للغاية الاسمى فحرص على جمعه. ونجده في غيرها لا يهتم بالمال الكثير المغري يعرض عليه؛ فقد رفض عرضا مغريا للصاحب بن عباد وهو مشاطرته كل ماله مقابل قصيدة واحدة، فقال (إن غليّما معطاء بالري يريد أن أزوره وأمدحه، ولا سبيل إلى ذلك). ورفض عرضا مماثلا لاحد تجار بغداد حين عاد اليها من مصر، ولو كان بخيلا شحيحا محبا للمال طبيعة لاغتنم هذه الفرص وهي كثيرة. وله أشعار هي الاروع في وصف الكرم مثل:

كَفانِيَ الذَمَّ أَنَّني رَجُلٌ أَكرَمُ مالٍ مَلَكتُهُ الكَرَمُ

مَن طَلَبَ المَجدَ فَليَكُن كَعَلِيّ يَهَبُ الأَلفَ وَهوَ يَبتَسِمُ

وقوله:

لَو فُرِّقَ الكَرَمُ المُفَرِّقُ مالَهُ في الناسِ لَم يَكُ في الزَمانِ شَحيحُ

الحزن:

عاش المتنبي حزيناً. والحزن صفة بارزة عليه ألقت ظلالها كثيفةً على شعره فشعره تغلب عليه السوداوية، ففي سيفياته وهي مرحلة مستبشرة من حياته نجد أن استعماله ألفاظ الفرح والسرور أقل كثيراً من الألفاظ الدالة على الحزن. أما في مصر فقد (أجاد الغناء الحزين كل الإجادة) ،وقد انطوت أبياته الأخيرة (الكافية) في إيران على حزن بلغ غايته فانقلب إلى استسلام مرير للنهاية. ويقول معبرا عن تمكن الحزن فيه وفقدانه السعادة مما يجعل حياته بلا جدوى:

فَلَو أَنّي حُسِدتُ عَلى نَفيسٍ لَجُدتَ بِهِ لِذي الجَدِّ العَثورِ

وَلَكِنّي حُسِدتُ عَلى حَياتي وَما خَيرُ الحَياةِ بِلا سُرورِ

اللاإنتمائية:

كان المتنبي متفرداً غير تابع لجهة ولهذا أبدل أرضاً بأرض وأميراً بأمير، ومن الصعب أن يضعه أحد في دائرة محددة؛ فلا هو سيفي ولا كافوري ولا عضدي؛ أي انه لم ينتمِ إلى أحد، بل انه انتمى إلى العروبة والإسلام على نحو مطلق، وإلى نفسه التي جعل منها محوراً في التغيير الذي نهد إليه وكذلك في أوقات سباته وتراجعه.

العفة:

دل شعره على أنه كان عفيفاً نظيف القلب ولهذا خلت حياته من النساء، وشعره من الحب؛ فالمراة في شعره صورة جامدة معلقة في جدار القصيدة إلا أن شعره أعطى صورة لعفته:

وترى المروّة والفتوّة والأبوَّة فيَّ كل مليحةٍ ضراتِهَا

هنَّ الثلاثُ المانعاتي لذتي في خلوتي لا الخوفُ من تبعاتِهَا

وقد استقدتُ من الهوى وأذقته من عفتي ما ذقتُ من بلبالِهِ

وقد قالوا فيه (كان عزهاة لا تطَّبيه النساء) أي غير ميال لهنَّ، عازف عنهنَّ. وأورد يوسف البديعي رواية في كتابه (الصبح المتنبي عن حيثية المتنبي) اشار فيها الى عفته عن الغلمان.

الوفاء:

عرف المتنبي وفياً لأصدقائه، مسامحاً لأخطائهم حفاظا عليهم. فبرغم ان سيف الدولة تغيّر عليه وأغرى بقتله، فانه لم يحقد عليه وظل يتصل به ويتابع أخباره ويشاركه أوجاعه وآلامه، فرثى (خولة) اخته وهو في العراق. وقال له قبل فراقه الى مصر (كل ما نجده بعدكم هو عدم):

يا مَن يَعِزُّ عَلَينا أَن نُفارِقَهُم وِجدانُنا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُم عَدَمُ

ووجدناه يذكر فاتك الرومي (أبا شجاع) بعد مفارقته اياه وموته في اشعار كثيرة وهو صديقه الذي تعرف اليه في مصر وجمعتهما صداقة قوية. فمما قاله فيه قصيدة يذكره وقد شاهد اسمه منقوشا على تفاحة ند:

يُذَكِّرُني فاتِكاً حِلمُهُ وَشَيءٌ مِنَ النَدِّ فيهِ اِسمُهُ
وَلَستُ بِناسٍ وَلَكِنَّني يُجَدِّدُ لي ريحَهُ شَمُّهُ

وقال فيه:

النوم بعد أبي شجاع نافر والليل مُعيٍ والكواكب ظلعُ
إني لأجبن من فراق أحبتي وتحس نفسي بالحمام فأشجعُ

إنسانيته

كان المتنبي يعتز بعروبته، فعاش عربيا قحا، وكتب الشعر العربي القح، فضلا عن الحضاري المولّد لما توجبه الحضارة والمعاصرة. ومع هذا لا نجده يتعالى على غير العرب أو يعاديهم، فقد كان (ابن جني) الرومي راويته. وفي احد مجالس سيف الدولة تفاخر عربي وكردي واضطرم النزاع بينهما في ايهما أفضل: العرب ام الكرد، فطلب سيف الدولة من المتنبي التدخل لحسم الخلاف. وكان المتوقع أن يحسم المتنبي الامر لصالح العرب فيفضلهم على الكرد، الا انه جعل التفضيل على مقدار الفضائل:

إِن كُنتَ عَن خَيرِ الأَنامِ سائِلاً فَخَيرُهُم أَكثَرُهُم فَضائِلا

ثم تخلص بلباقة الى مدح الامير واجداده باعتبارهم (أفضل العرب) وتجنب التفضيل بين القوميتين.

مَن أَنتَ مِنهُم يا هُمامَ وائِلا الطاعِنينَ في الوَغى أَوائِلا

وَالعاذِلينَ في النَدى العَواذِلا قَد فَضَلوا بِفَضلِكَ القَبائِلا

ومدح القائد الكردي (دلير بن لشكر آواز) الذي هزم الخوارج حين هاجموا الكوفة سنة (٣٥٣ هـ)، وكرر اسمه في القصيدة اكثر من مرة مع صعوبته وطوله:

فَلَستُ غَبيناً لَو شَرَيتُ مَنِيَّتي بِإِكرامِ (دِلَّيرَ اِبنِ لَشكَرَوَزٍّ) لي

وللمتنبي صفات وأخلاق طيبة قلما تجتمع في شخص. فهو (**رقيق القلب، رهيف الحس، سريع التأثر**) كما يدلل على ذلك شعره كقوله يشبّه المفجوع الغريق بدموعه بالقتيل المضرج بدمائه:

إِنَّ القَتيلَ مُضَرَّجاً بِدُموعِهِ مِثلُ القَتيلِ مُضَرَّجاً بِدِمائِهِ

المآخذ على المتنبي

يؤخذ على المتنبي انه قصّر مع ربه الله العظيم الذي أعطاه شاعرية لم يعطه لشاعر قبله أو بعده، وأعطاه شهرة وخلودا لم يعطه لغيره من الشعراء والمثقفين؛ فلا أثر للقرآن الكريم في شعره، ولا دعا فيه أو أشار الى الهدى والدين. وعرف بعدم التزامه الديني إلى درجة ترك الواجبات؛ حكى علي بن حمزة قال: (بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة؛ وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط، وبلوت منه ثلاث خلال ذميمة؛ وتلك أنه ما صام، ولا صلى، ولا قرأ القرآن). واتهمه أبو القاسم الأصفهاني بالضلالة صراحة.

والمتنبي اذا حقد تقوّل على خصمه بحق او باطل فألصق به أسوأ الصفات.

كما يؤخذ عليه انه أبدى عن حقد أعمى ونكران للجميل في هجائه كافورا الاخشيدي. وكافور أفضل من قدّره وأحبه، وأجزل من أعطاه. ولم يرد منه غير شعره وأدبه ليزيده. ولكن المتنبي كان يريد الملك من كافور فلما رفض ذلك هجاه فأقذع. فقد سخر من لونه الاسود الذي اختاره الله له ولم يكن باختياره، كما هجاه بأنه (خصي)! وانه اذا قال

(هذى)، واذا حركوه (فسا)، ونقض ما مدحه به من حسن تدبير وقوة شخصية. ولم يكن كافور كما صوَّره المتنبي (الأحمق والبخيل والجبان) بل كان سياسيا محنكا، لأجل ذلك كان الفاطميون (كلما أرادوا احتلال مصر تذكروا ان كافورا هناك. ويقولون: لن نستطيع فتح مصر قبل زوال الحجر الاسود) يقصدون كافورا. وقد احتل الفاطميون مصر بعد موت كافور بالفعل. ويقول ابن خلدون عن كافور (من أعاظم الملوك، جوادا، ممدوحا، سيوسا، كثير الخشية لله والخوف منه). وقال القلقشندي بحقه (ان الناس اغتنوا في أيامه). وتقول المصادر انه حرص على تثقيف نفسه، وتقليد اعاظم الملوك؛ فكان تُقرأ عليه السير، ويتدارس الادب واللغة والعلوم. وسبب حقد المتنبي على كافور الاخشيدي انه قضى على طموحه الى الابد، وأفسد حلمه وأيقظه منه على حقيقة كان عليه أن يدركها؛ وهي ان الشعر لا يوصل الى الملك، والشعراء لا يجيدون عمل الساسة، فأرجعه كافور (بخفّي حُنين ونفض اليَدين).

مقتل المتنبي

في يوم السبت ٢٤ رمضان سنة ٣٥٤هـ، الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٩٦٥م، قتل أبو الطيب المتنبي (في النعمانية) من قبل مجموعة كبيرة مسلحة، راجعا من شيراز عاصمة البويهيين، حيث حلَّ ضيفاً على السلطان (عضد الدولة البويهي). وكان المتنبي قاصدا بغداد في طريقه الى الكوفة.

كان مع المتنبي مجموعة، مثلما كان في مجموعة حين هرب من مصر الى الكوفة. وهي مجموعة صغيرة كما يفهم من بعض المصادر، وليس – حسب مصادر اخرى – ابنه محسد وغلامه مفلح فقط. وحين وصلوا الى منطقة مقطوعة عن الناس والنجدة، وبينما كانوا في استراحة، باغتتهم جماعة من اللصوص؛ قطاعي الطرق الطاعنين من الخلف كما يسميهم الانجليز (Back shoot). فسقاهم المتنبي وجماعته كؤوس الموت مصبَّرة فأفنوهم عن اخرهم. وجاء في بعض المصادر انهم استنجدوا بغيرهم من اللصوص، اذ اساؤوا التقدير وظنوا انهم يكفون جهلا بشجاعة الشاعر البطل. فعُززوا بالمزيد من اللصوص قطاعي الطرق. ولكن لم يكن عدد قطاع الطريق بمجملهم – وحسب معطيات الهجوم الاول– كافيا لحسم المعركة. لذا طلبوا من فاتك الاسدي ان يتحين غفلة وانشغال المتنبي بالقتال فيرميه بالرمح عن بعد جبنا عن مواجهته بالسيف، كما قتل وحشي حمزة بالرمح عن بعد مستغلا انشغاله بالقتال، فرماه برمح طويل فقتله. وبعد قتله قتلوا من معه بسهولة.

تلك هي المعركة التي لم تذكرها المصادر بتفاصيلها، سوى اشارات قمنا بتجمعها فضلا عن مراثي المتنبي التي أفادت في امور جوهرية، وتقديرنا للموضوع بشكل عام. وسبب عدم ذكر المصادر لها مفصلة هو محاولة طمس اي مجد للشاعر، كما ان بني اسد بعد تبني عضد الدولة (ملف الجريمة) صاروا يختلقون ويوهمون في موضوع قتله.

لقد فضَّل المتنبي القتال على فداء نفسه الثمينة بما يحمل من حطام تافه؛ لأنه لم يعد يحرص على الحياة، وحياته خاوية من هدف، فارغة من رغبة، فهو يعيشها بلا تخطيط لشيء أو تحصيل شيء. كما أبى عليه كبر نفسه ورجولته قبول اهانة (التسليب). فحين

استشار حاله قرر المواجهة فورا. كان اللصوص الخيار غير المطروح الذي يتمناه لرسم نهاية مشرفة له. اذ لم تعد أرض قديمة تقبله، فكلها تركها غاضبا عليها أو غاضبة عليه. ولم تعد أرض جديدة تغريه بعد نفض يديه من طموحه. فهو ميّت سريريا، ويتمنى رصاصة الرحمة خاتمة كريمة.

لقد تنكرت له الارض جميعا والناس أجمع، ولم يعد له تخطيط مستقبلي، وماضيه مات، وحاضره ارض متزلقة غير ثابتة، أي انه خارج الزمن وأبعاده الثلاثة. انه يقصد بغداد ثم الكوفة التي لا يتصور كيف يستقبلها او تستقبله، ولكن مندفعا اليها بلا هدى. فبرزت المواجهة أفضل الحلول وأشرف النهايات. وهنا راودته أيام البطولة واحلام الرجولة فاندفع اليها؛ لقد أنشد طوال عمره للحرب والانتصار والبطولات السامية شعرا نادر الحماسة والفن نظريا، وها هي فرصة تتاح لتجسيدها على ارض الواقع عمليا. وقد مر عهد طويل للخمول، ربما تهدلت قوته، وصدئ سيفه، وتأطر رمحه. فليجرد سيفه فيشحذه في الرقاب، وليطعن برمحه فيقوّمه في الاجساد، وينتصر عزيزا، أو يقتل كريما بين طعن القنا وخفق البنود.

كان المتنبي في اعظم ارتياحه وهو يرى اللصوص يهاجمونه وهو يصول ويجول فيهم وبينهم وعليهم وتعلو صيحاتهم وتتهاوى أجسادهم، ويعانق الطعان والحراب (أحلى محبيه اليه) فليس صحيحا انه هرب، ولا انه تدنس بخوف او حزن. لقد طلع اليهم مثل سهيل لموت ابناء الزناء، وجرت معركة عظيمة على صغر مساحتها وقلة شخوصها، معركة أخفى الجبناء تفاصيلها تشويها وقلبا لموازين احداثها وحقيقتها. لقد اكتسحهم بطوله الفاره وجسده الضخم وملامحه المرعبة وسيفه القرضاب ومجنّه الضافي، لقد برز المتنبي بشخصيته الحقيقية بعد نزع شخص الشاعر عنه تماما، فحبذا لو وجدت كاميرا تصور المشهد. وحينما عجزوا عنه، وطلبوا النجدة، واستسلمت رجولتهم الخائبة نادوا على فاتك فلم يجرؤ على التقدم اليه ومطاعنته بالسيف، فسدَّد اليه رمحا طويلا ومن مسافة طويلة جبنا وخزيا فرماه كما رمى وحشي حمزة. لقد كان قتل المتنبي جزئية من هرم عظمته الباذخة.

اذا افترضنا أن تحقيقا أجري في مقتل المتنبي لمعرفة الجاني، فسينتهي التحقيق الدقيق الى دواعي قتل المتنبي واحتمالاته الاتية:

١- الحسد: كان المتنبي محسودا بالفعل، وهو يعرف ذلك ويدركه. وقيل انه خمَّل (٤٠٠) شاعر في حياته، وأزاح (الشاعر النامي) عن الصدارة في حلب لدى سيف الدولة وكان شاعره المفضل قبل المتنبي، وهذا ازعج النامي كثيراً، وتشاجر مع المتنبي أبو فراس الحمداني أمام سيف الدولة حنقا عليه لحمل سيف الدولة على طرده، وتمكن هؤلاء من حمل المتنبي على ترك سيف الدولة أخيرا، كما حملت حاشية بدر بن عمار المتنبي على ترك الامير. وحاول ابن العميد تخميل المتنبي باعترافه، وحتما ما لم يذكر ويؤشَّر أكثر مما ذكر وأشّر. وفي بغداد شن الشعراء والكتاب الحرب السافرة على المتنبي، فكتب الحاتمي مناظرة يتطاير منها الشرر واذا وقعت المناظرة بالفعل بينهما فما كتبه أكثره افتراء وكذب وشفاء لغليل الحقد والحسد. وانبرى الصاحب بن عباد بعد ان تجاهله المتنبي يغيّر في أبيات المتنبي ثم ينتقدها بلا خجل ولا وجل. من مثل قول المتنبي:

إنّي عَلى شَغَفي بِما في خُمرِها لَأَعِفُّ عَمّا في سَرابيلاتِها

وسرابيل تعني الثياب. وهو معنى متسق ولائق، أي اني مع حبي الشديد لجمال وجوه النساء فأنا أعف عن التفكير في ما تحت الثياب. فجاء الصاحب فغيّر (سرابيلاتها) الى (سراويلاتها) ثم علق (كثير من العهر خير من هذا العفاف). واغرى الوزير المهلبي كلاب الشعر في بغداد فاثخنوه بالفظِّ والساقطِ من القول كابن لنكك وابن حجاج وابن سكرة. ومرة اعترض طريقه ابن حجاج فقرأ عليه ابياتا فاحشة تدل على سقوطه الثقافي والاخلاقي لا يسمح فحشها القبيح من ايرادها، فصبر المتنبي ساكتا حتى اكملها وانصرف الى بيته. ولا يبعد أن دس الوزير المهلبي من قتله، أو ان احد هؤلاء الادباء المتمنين موته دبر قتله، وقد ورد في خبره معهم (أنه ترك بغداد الى ايران مراغما).

٢- أهاجيه للكبراء وثوراته: كان للمتنبي أهاج في الامراء والوزراء والملوك، وقد روي انه قال (أنا لا أمدح الا الامراء والملوك، ولا أهجو الا الامراء والملوك)؛ فقد هجا الوزير (ابن كروَّس) احد رجال الامير بدر بن عمار، وهجا (أحمد بن إبراهيم بن كيغلغ) أحد امراء العباسيين، وهجا (السامري) كبير كتاب سيف الدولة، وهجا كافورا الاخشيدي، وهجا الملوك والامراء الاعاجم. كما قام المتنبي بحركات وثورات كثيرة فهو شخصية خلافية ثورية (مِسعر حروب ورجل انقلابات). وقد مر انه قام بثورات او محاولات كثيرة في مرحلته الاولى في الشام، وحركة لدى سيف الدولة، ثم تدبير الاطاحة بكافور الاخشيدي في مصر. ويبدو انه اقلق عضد الدولة فحين قرئت عليه مقصورة المتنبي وجاء البيت:

لتَعلَمَ مِصرُ وَمَن بِالعِراقِ وَمَن بِالعَواصِمِ (أَنّي الفَتى)

نهض من دسته مذعورا وقال (هو ذا يتهددنا المتنبي).

وازدرى المتنبي ابن العميد وهو يقصده هاربا من أدباء او عملاء بغداد؛ فحين وصل الى مشارف ارجان ضرب بيده على صدره وقال: (تركت ملوك الأرض وهم يتعبدون بي وقصدت رب هذه المَدَرة فما يكون منه). وقد سبق ان ابن العميد كان يحسده على شهرته. وقد عرَّض بعضد الدولة وفضل عليه سيف الدولة في العطاء فقد ذكر الصفدي ان عضد الدولة اجزل له العطاء ودس عليه من سأله فقال له: (أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: هذا أجزل إلا أنه عطاء متكلف وسيف الدولة يعطي طبعاً، فغضب عضد الدولة وأذن لقوم من بني ضبة فقتلوه). واتهم الجواهري عضد الدولة بقتله. ولا يستبعد أن أحدا ممن ذكرناه قد قتله أو أغرى بقتله.

٣- أنا استبعد قضية هجاء المتنبي لضبة الاسدي ومن ثم انتقام خاله فاتك الاسدي منه بقتله. ولكن لا يستبعد ان قطاع الطرق قد قتلوه، وكان الشائع ان المتنبي يأخذ أمواله معه حيث حلَّ، وليس ببعيد أن احد قطاع الطرق طمع فيه بعد أن أصبح في الصحراء

لقمة سائغة. ولدينا قصيدة لثابت بن هارون الرقي يستثير عضد الدولة للانتقام للمتنبي من بني أسد منها:

صه يا بنَي أسد فلستِ بنجدةٍ أثرتِ فيه بل القضاء يقيد

هذي بنو أسد بضيفك أوقعت وحوت عطاءك إذ حواه الفدفد

فالقصيدة تسمي بني أسد قتلة وسلبة. ولو كان فاتك آخذا للثأر (ولم نسمع ان شاعرا قتل على هجاء) لما سلب مال المتنبي، ولما قتل ابن المتنبي وخادمه. وقد يكون فاتك قاتلا مأجورا من قبل كل الذين ذكرناهم من القاتلين المحتملين للمتنبي، وقد حانت الفرصة المناسبة لقتله في الصحراء المنقطعة وحده بلا حماية، وغير داخل في حيز ومسؤولية أحد.

فمن قتل المتنبي؟

سؤال واحد وأجوبة شتى! وها نحن نلقي دلونا في الدلاء للإجابة عليه، مستخدمين الادلة المستنبطة من شعره، ومن الآراء والاحكام التي أطلقها الباحثون قبلي، بتركيز وبحث علمي دقيق ورصين، بحيث لا نترك فجوة بقدر سمّ الخياط يدخل منها الخطأ أو يخرج منها الصواب. ان المتهمين بقتل المتنبي ستة لا سابع لهم، وهم:

١- كافور الاخشيدي؛ لان المتنبي هجاه وسخر منه، وأضحك عليه الأمة.

٢- عضد الدولة؛ لان المتنبي هجا سلاطين العجم، ونعتهم بشرّ النعوت، وكان يرى انهم سبب خراب الدولة وضياع الامة، وان العرب أفضل من يسوس الملك ويحكم المسلمين:

وإنما الناسُ بالملوكِ، وَما تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ

لا أدبٌ عندهُمْ ولا حَسَبٌ ولا عُهُودٌ لَهُم ولا ذِمَم

وتروي المصادر ان عضد الدولة حين سمع افتخار المتنبي بقوله:

لِتَعلَمَ مِصرُ وَمَن بِالعِراقِ وَمَن بِالعَواصِمِ (أَنّي الفَتى)

كان مضطجعا فنهض قائلا: (هو ذا يتهددنا المتنبي)!

٣- الصاحب بن عباد؛ لأنه عرض على المتنبي أن يمدحه بقصيدة مقابل نصف ثروته، فقال المتنبي متهكما به ومستصغرا اياه: (إن غليّما معطاء بالري يريد أن أزوره وأمدحه، ولا سبيل إلى ذلك)! فنصب الصاحب له العداء. وليس ببعيد أنه أغرى جماعة بقتله.

٤- الوزير المهلبي؛ لان المتنبي أعرض عن مدحه؛ لِمَا رآه فيه من مجون وتهتك. وكان المهلبي ينتظر من المتنبي مدحه بتلهف، فخيّب ظنه. وربما فكر بقتله انتقاما منه.

٥- فاتك الأسدي. فحسب ما يروى في قصة طويلة ذات تفاصيل، ان المتنبي هجا ابن أخته (ظبَّة) بقصيدة شنيعة، فحلف هذا أن يقتله، وتحيّن الفرصة حتى أمكنت والمتنبي خارج حدود حكم عضد الدولة، فقتله.

٦- قتله قطاع الطريق طمعا بثروته التي باتت حديثا مألوفا عن المتنبي.

فكل هؤلاء ممكن أن يكون قد قتله. ولكن قد يفيدنا استقراء الحقائق في حصر دائرة الشك، وقد يقودنا البحث الى معرفة الحقيقة ونتعرف الى القاتل.

ما يخص كافورا الاخشيدي، لم يكن الاغتيال السياسي وعمليات تصفية الخصوم خارج الحدود قد عرفت بعد. ويعد الحشاشون أول من قام بذلك في القرن الخامس الهجري. وكافور قتل واغتال كل من هدد سلطانه، وقد حبس المتنبي في اقامة جبرية حين شكّل خطرا على دولته، بتآمره مع خصومه (فاتك الرومي وشبيب العقيلي)، أما بعد خروجه من مصر فلا خطر للمتنبي عليه، ومستبعد أنه وضع في عنايته ارسال شخص لقتله. ونستطيع التأكد من المتنبي نفسه، فانه أعرف بالرجل، وهو صاحب فطنة واحتراز، وقد عاش في العراق وايران بعد هروبه من كافور حياة طبيعية جدا ليس فيها أقل احتياط. وهذا يستبعد كافورا قاتلا للمتنبي.

كما يستبعد تماما عضد الدولة على الرغم من اتهامه من قبل بعض الباحثين، فضلا عن الجواهري الذي يقول:

يـدٌ لفاتـكَ كانـت آلـةً رفعـتْ وراءه خبّئـت مـن آخـرينَ يَـدُ

فالمتنبي ذهب اليه اختيارا وليس اجبارا حين عرض عليه ابن العميد دعوة عضد الدولة لزيارته. وقد استقبله عضد الدولة احسن استقبال، وكان معجبا به يفضله على أبي تمام والبحتري معاً (قيل: كان عضد الدولة جالساً في البستان الزاهر يوم زينته وحفله وأكابر حواشيه وقوف سماطين، فقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكامي: ما يعوز مجلس مولانا سوى أحد الطائيين. فقال عضد الدولة: لو حضر المتنبي لناب عنهما). واجزل له العطاء. وحين سافر المتنبي عنه أرسل معه حماية الى حدود مملكته. ولم يكن المتنبي يهدد حكم عضد الدولة أقل تهديد، حتى نغمة الثورة في شعره اختفت، والحصان الاسطوري الذي كان يحقق الانتصارات الحربية صار في ايران صديقا مسالما، مؤنَّبَ الضمير على ترك جمال الطبيعة الى الحرب:

يَقـولُ بِشِـعبِ بَـوّانٍ حِصـاني أَعَن هَذا يُسارُ إِلـى الطِعان؟!
أَبـوكُم آدَمٌ سَـنَّ المَعاصـي وَعَلَّمَكُـم مُفارَقَـةَ الجِنـانِ

وقد رافق المتنبي عضد الدولة في حله وترحاله، وفي رحلات صيده، وكتب اراجيز مشهورة في ذلك. ولم يكن المتنبي قلقا من عضد الدولة، وما ذكره من الخوف أول مرة في شعره فيرجع الى كبير نباهته، واستشعاره الخطر، وحدسه العجيب، وتوقعه الخطر في الطريق يرجع الى تنبؤه:

وَأَيّا شِئتِ يا طُرُقي فَكوني أَذاةً أَو نَجاةً أَو هَلاكا
يُشَرِّدُ يُمنُ فَنّاخُسرَ عَنّي قَنـا الأَعـداءِ وَالطَعـنِ الـدِراكا
وَأَلبَسُ مِن رِضاهُ في طَريقي سِلاحاً يَذعَرُ الأَبطالَ شاكا

ويضاف الى الادلة طلب ثابت بن هارون في رثائيته للمتنبي من عضد الدولة وقد ألقاها بحضرته، أن يثأر له من قتلته بني أسد التي قتلته وسلبته، بوصفه كان ضيفا عنده وفي حماه. وهي (شهادة براءة عضد الدولة) من قتله، فثابت من معاصري الحدث، فهو يعطي رأيه الاقرب الى الصحة، وانطباع جيله. ولو كان هناك لغط باتهام عضد الدولة لذكر:

يـا أيهـا الملـك المؤيـد دعـوة ممـن حشـاه بالأسـى يتوقـدُ
هذي بنو أسد بضيفك أوقعت وحـوت عطـاءك إذ حـواه الفدفـدُ
وله عليك بقصده يا ذا العلى حـق التحـرم والـذمام الأوكـدُ
فارع الذمام وكن بضيفك طالباً إن الـذمام علـى الكـريم مؤبَّـدُ
ارع الحقوق لقصده وقصيده عضد الملوك فليس غيرك يقصدُ

فعضد الدولة بريء نهائيا من دم المتنبي.

كما يستبعد الوزير المهلبي والصاحب بن عباد؛ فكلاهما لا يجرؤ على قتل ضيف عصد الدولة. الوزير المهلبي يعلم ان الحكم الحقيقي بيد البويهيين وليس بيد الخليفة العباسي الذي يعمل وزيرا له. والصاحب بن عباد أكثر بعدا؛ لأنه من كتاب البويهيين. فلا يجرؤ حتى بالتفكير في اغتيال ضيف سلطانهم وان كان يبغضه ويحسده.

فلم يعد في دائرة الاتهام غير (فاتك الاسدي وبني أسد) المعروفين بقطع الطريق. ولم يذكر الراثون للمتنبي ان فاتكا الاسدي قتله، ولا السبب المفتعل لقتله اياه وهو دفاعا عن شرف ابن اخته الذي انتهكه المتنبي بقصيدة هجائية مقذعة. فذكر ابن جني – كما تقدم – ان المتنبي قتل بالرماح، وسلب حتى ثيابه، دون ان يصرّح أو يلمّح الى القاتل. وذكر ثابت بن هارون ان بني أسد قتلته وسلبته في قصدته التي ذكرنا أبياتا منها في تحريض عضد الدولة على الثأر من قاتليه.

وذكر ثابت بن هارون أن بني أسد سلبوه، وهو يوافق هذا التحليل. ولم يذكر (فاتكا الاسدي) مما يدل على أن قتله لسبب التسليب طمعا بثروته. أما القصة الطويلة العريضة عن قتل فاتك الاسدي للمتنبي انتقاما لابن اخته (ظبة) لان المتنبي هجاه هجاء فاحشا مخلا بالشرف، فهو محض افتراء وتنميق قد وضعوه لاحقا. وأرى ان عضد الدولة بعد أن حرَّضه الشاعر النصراني ثابت بن هارون على اخذ ثار المتنبي (ضيفه) من بني أسد، وقد افتضح ان قاتله الفعلي (فاتك الاسدي) بسبب التحقيق الجاد من قبل السلطان البويهي، التجأ بنو أسد الى اختلاق قصة هجاء المتنبي بقصيدة فاحشة لضبة

ليتحول قاطع الطريق اللص السفاح الى رجل غيور منتقم للعرض، ومن ثم يغلق الملف على انه (تصفية حساب شخصي ودفاع عن الشرف) وليس تسليبا واعتداءً على حمى وضيف السلطان.

والقصيدة مكتوبة على (بحر المقتضب) وهو من البحور العباسية المستحدثة، ولم يكتب المتنبي على هذا البحر أو غيره من البحور المستحدثات (المصارع، المقتضب، المتدارك) قط. وهي على الرغم من صياغتها بعناية فائقة، لا تفوت على أهل الاختصاص وجهابذة الشعر. ان معرفة رأي المتنبي بالبحور المستحدثة وبحر المجتث خاصة، يدعو إلى التأني في قراءة القصيدة المنسوبة إليه واستحضار كل معرفتنا بتكوين المتنبي الشخصي والثقافي. بدءاً القصيدة مملوءة بالفحش والفجور وألفاظها يستخدمها الفسقة والساقطون وهو ما لا نجده في عموم شعر المتنبي الكيّس العظيم الهمة. ومن الناحية اللغوية، القصيدة تخلو من الجزالة المعهودة لدى المتنبي، وتكثر فيها ألفاظ سوقية لا ترد في شعر الفحول. وفي القصيدة توجد لفظة (تيبَه) مخففة من (تأبه) وهو استعمال غريب لم يذكره لا شاعر ولا ناثر، وليس بالمقبول البتة أن يتجاوز المتنبي على اللغة ويخالف الجميع. أما من الناحية الشعرية، فالأبيات كما وصفها ابن رشيق القيرواني (ركيكة)، وليست من قصائد اللفظ أو المعنى، وليس فيها أدنى مقدار من الشعرية. وان الحكم على صحة القصيدة من عدمها يقتضي حكماً موسيقياً أهم هو إيمان المتنبي القاطع – بوصفه شاعرا عروبيا يأنف من الكتابة على الاوزان المستحدثة – بأن هذه البحور لا تصلح لكتابة شعر عربي، المعروف بالتزامه قواعد الاسبقين في الأبجدية الشعرية برمتها. ويوضح رأي الشعراء العروبيين قول الزمخشري انهم لا يعترفون بالشعر الذي يكتب على غير أوزان العرب.

وذكر القاضي التنوخي ثلاثة أسباب لقتل المتنبي: الأول: انه كان معه مال كثير فقتله العرب واخذوا ماله، والثاني كلمة قالها عن عضد الدولة، فدس عليه من قتله، والثالث بسبب القصيدة. ونحن نجزم بما قدمناه أن السبب الاول أكثر إقناعاً.

والرأي النهائي في مقتله، أن قطاع الطريق من بني أسد – وهم معروفون بقطع الطريق – سلبوه ثم خافوا من بطش عضد الدولة لان المتنبي (ضيفه الغالي) الذي يحلم كل رئيس أن يحظى بمدحه، فاذا بالمتنبي يأتي بنفسه اليه ويمدحه. فقرروا قتله لكي لا يخبر عضد الدولة بسلبهم اياه، وكلفوا فاتك الاسدي، فقتله (طعنا بالرمح)، كما يوضح ابن جني ذلك في مرثيته:

سُلبتَ ثوبَ بهاء كنتَ تلبسه كما تُخِطفتَ (بالخطِّيَّة السُّلُبِ)

وقد باغته فاتك خوفا من بأسه المشهور وشجاعته منقطعة النظير، لذا قال ثابت بن هارون:

ذقت الكريهة (بغتة) وفقدتها وكريه فقدك في الورى لا يفقدُ

وهو وصف دقيق لشجاعة المتنبي وعدم مواجهته. وسلبوه ما حصل عليه من عطاء عضد الدولة:

هذي بنو أسد بضيفك أوقعت وحوت عطاءك إذ حواه الفدفدُ

وبعد أن استعدى هارون بن ثابت الرقي عضد الدولة على بني أسد (قتلة المتنبي) واشتهر فاتك الاسدي بقتله، زرعت هجائية ضبة المسخ في ديوانه قسرا، كما زرعت ابيات وحرفت ابيات في ديوان المتنبي من قبل أدباء العراق. وقد أغرى بني أسد بقطع الطريق على المتنبي أكثر نيلُه عطاء ابن العميد وعضد الدولة، لما كان يشاع خطأ بأن المتنبي كان يحمل ثروته اينما ذهب، وقد صححنا هذه المعلومة بأنه كان يطوف في الاصقاع وما يحصل عليه من مال يعود به الى الكوفة. قال ابن العديم نقلا (وافى المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والثياب والطيب والجوهر والآلة، لأنه كان اذا سافر لم يخلّف في منزله درهما ولا دينارا ولا ثوبا ولا شيئا يساوي درهما واحدا فما فوقه).

رثاء المتنبي

رثى المتنبي مجموعة من الشعراء والادباء والعلماء. فرثاه محمد بن اسحق التنوخي فقال:

إنّي لأعْلَمُ، واللّبيبُ خَبِيرُ أنْ الحَياةَ وَإنْ حَرَصْتُ غُرُورُ
ورَأيْتُ كُلاًّ ما يُعَلّلُ نَفْسَهُ بِتَعِلّةٍ وإلى الفَنَاءِ يَصِيرُ
أمُجاوِرَ الدَّيْمَاسِ رَهْنَ قَرَارَةٍ فيها الضّياءُ بوَجْهِهِ والنّورُ
ما كنتُ أحسبُ قبل دفنكَ في الثّرى أنّ الكَواكِبَ في التّرابِ تَغُورُ
ما كنتُ آمُلُ قَبلَ نَعشِكَ أن أرَى رَضْوَى على أيدي الرّجالِ تَسيرُ
خَرَجُوا بهِ ولكُلّ باكٍ خَلْفَهُ صَعَقاتُ مُوسَى يَوْمَ دُكّ الطُّورُ
والشّمسُ في كَبِدِ السّماءِ مريضَةٌ والأرْضُ واجفَةٌ تَكادُ تَمُورُ
وحَفيفُ أجنِحَةِ المَلائِكِ حَوْلَهُ وعُيُونُ أهلِ اللاّذقِيّةِ صُورُ
حتى أتَوْا جَدَثاً كَأنّ ضَرِيحَهُ في قَلْبِ كُلّ مُوَحِّدٍ مَحْفُورُ

ورثاه ابن جني بقوله:

غاض القريض وأودت نضرة الأدبِ وصوَّحت بعد ري دوحة الكتبِ
سُلبتَ ثوب بهاء كنتَ تلبسه كما تخطَّف بالخطيَّة السُّلُبِ
ما زلتَ تصحبُ في الجلَّى إذا نزلت قلباً جميعاً وعزماً غيرَ منشعبِ
وقد حلبتَ لعمري الدهرَ أشطره تمطو بهمَّةِ لا وانٍ ولا نصِبِ
من للهواجل تحيي ميتَ أرسمها بكلِّ جائلة التصدير والحقَبِ
قبَّاءُ خوصاءُ محمودٌ علالتُها تنبو عريكتُها بالحلسِ والقَتَبِ
أم من لسرحانِها يقريه فضلتَه وقد تضوَّر بين اليأسِ والسَّغبِ
أم من لبيضِ الظُّبا توكافُهُنَّ دمٌ أم من لسُمر القنا والزغفِ واليَلَبِ

أم للمحافل إذ تبدو لتعمرها بالنظم والنثر والأمثال والخطب
أم للصواهل محمرّاً سرابلها من بعد ما غربت معروفة الشهبِ
أم للقساطل تعتمُّ الحروب بها أم من لضغم الهزبر الضيغم الحربِ
أم للضراب إذا الأحساب دافعَ عن تذنيبها شعرات الوكَّف القُضُبِ
أم للملوك تحليها وتُلبسها حتى تمايسَ في أبرادها القُشُبِ
نابت وسادي أحزاني تؤرقني لما غدوتَ لقىً في قبضة النُّوَبِ
عمرتَ خِدنَ المساعي غير مضطَهَدٍ ومُتَّ كالنصل لم تدنَسْ ولم تُعَبِ
فاذهبْ عليك سلامُ الله ما قلقت خوصُ الركائب بالأكوارِ والشعبِ

ورثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطبسي بقوله:

لا رعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا في مثل هذا اللسان
ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يرى لبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة في جيش وفي كبرياء ذي سلطان
هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

ورثاه ثابت بن هارون الرقي واستثار له عضد الدولة على فاتك وبني أسد بقوله:

الدهرُ أغدرُ والليالي أنكدُ من أن تعيشَ لأهلها يا أحمدُ
قصدتكَ لمَّا أن رأتك نفيسَها بخلاً بمثلكَ والنفائِسُ تُقصدُ
ذقتَ الكريهة بغتةً وفقدتَها وكريهُ فقدك في الورى لا يُفقدُ
ما كان تارِكَكَ الزمان لأهلِه إنَّ الزمانَ على الغريبةِ يُحسَدُ
قلْ لي إن اسطعتَ الخطابَ فإنني صَبُّ الفؤادِ إلى خطابكَ مُكمَدُ
أتركتَ بعدك شاعراً واللهِ لا لم يبقَ بعدك في الزمان مُقصِّدُ

أما العلومُ فإنها يا ربَّها تبكي عليك بأدمعٍ ما تَجمدُ
غدرَ الزمانُ به فخان ولم تزل أيدي الزمان ببأسه تَستَنجِدُ
لقي الخطوبَ فبذَّها حتى جرى غلطُ القضاء عليه وهو تَعمُّدُ
صَهْ يا بني أسدٍ فلستِ بنجدَةٍ أثَّرتِ فيه بل القضاءُ يقيّدُ
يا أيها الملكُ المؤيَّدُ دعوةً ممن حشاهُ بالأسى يتوقَّدُ
هذي بنو أسدٍ بضيفكَ أوقعت وحوتْ عطاءَك إذ حواهُ الفَدْفَدُ
وله عليك بقصده يا ذا العلى حقُّ التحرُّم والذمامُ الأوكدُ
فارعَ الذمامَ وكنْ بضيفك طالباً إن الذِّمامَ على الكريم مؤبَّدُ
ارعَ الحقوقَ لقصدِهِ وقصيدِهِ عضدَ الملوك فليسَ غيرُكَ يُقصَدُ

قبر المتنبي

عندما تنعطف من الشارع العام بين الكوت وبغداد الى النعمانية، فتسير مسافة ثلاثة كيلومترات، يقوم على جهة اليمين ضريح عال بتصميم مميز يطلق عليه (قبر الشاعر المتنبي).

كان هذا القبر لشخص مجهول يسمونه (أبو سورة). وكان يعتقد انه إمام أو سيد مبارك، لذا قام حمودي الشكور (من وجهاء المنطقة)، ببنائه من طين في الثلاثينيات من القرن الماضي، وقامت حوله مقبرة للأطفال، ثم ازيحت لاحقا ليبنى هذا الضريح المعروف اليوم.

ويذكر (مبين خشاني) ان الطبيب والاديب (عادل البكري) هو من اكتشف قبر المتنبي! بناء على (وجود قبر قديم يسمى أبا سورة، وهو شاعر مجهول)، ولكون القبر (في النعمانية، والمتنبي قتل في النعمانية). فاتصل في عام ١٩٦٤ بأمانة بغداد، ومديرية الاثار العامة، والمجمع العلمي العراقي، وبعض الشخصيات منهم: الدكتور مصطفى جواد، والدكتور خليل العطية، فضلا عن القائمقام، فعاينوا الضريح (واتفقوا) انه قبر المتنبي. واقاموا مهرجانا شعريا دوليا، ثم نصبوا في المكان نصب المتنبي القائم اليوم.

لقد حُدّد قبر المتنبي في هذا المكان بناء على افتراضات غير صحيحة، والرغبة في أن يكون للمتنبي قبر في المكان الذي قتل فيه، يكون رمزا تعتز به محافظة واسط وقضاء النعمانية. ولم تكن اللجنة المشكلة لتحري حقيقة القبر تمتلك المعلومات الكافية للقطع بالحقيقة؛ فقد اعتمت على ما ظنه البكري، بناء على امرين: (وجود قبر قديم يقال انه لشاعر مجهول في مدخل النعمانية)، و(كون المتنبي قتل في النعمانية وهو في طريقه الى الكوفة).

ان الخلط وعدم الدراية بخارطة العراق في العصر العباسي هو الذي اوقع اللجنة في الخطأ، وبنوا على (أبو سورة) ضريحا وصرحا كبيرا مميزا وقالوا انه للشاعر أبي الطيب المتنبي. لانهم ظنوا بسبب جهلهم لجغرافيا العراق في العصر العباسي أن المتنبي كان

يريد الذهاب – قادما من الاهواز – من واسط الى الكوفة عبر النعمانية، لوجود طريق سالك ومعبّد اليوم من الكوت الى الكوفة. وقد نوَّهنا بأنَّ العباسيين قطعوا الكوفة عن الشرق: واسط وايران وغيرها، فلم يجعلوا طريقا للكوفة الى الشرق. فالطريق الذي يربط اليوم بين النعمانية والكوفة حديث لم يقم في العصر العباسي مثله. كما توضح أقدم خارطة للكوفة.

فهذا القبر اذن لرجل يلقب بـ(أبو سورة) مجهول الاسم والشخصية. وأيا ما يكون فقبر أبو سورة ليس قبر المتنبي. أما قبر المتنبي، فقطعا ان عضد الدولة البويهي وجّه بدفنه في مقبرة محترمة لانه ضيفه. وجرت العادة أن يحمل رفات الذي يموت في الطريق الى اقرب مقبرة ولا يترك في مجاهيل الطريق تنبشه الضباع والكواسر، فاكرام الميت دفنه في قبر يحفظه من نبش الانسان والحيوان. فكيف والمتنبي بهذه الشهرة المطبقة لأرجاء المعمورة، وهو ضيف أقوى سلاطين المسلمين، يترك في رمال الصحراء؟؟!!

ولو كان دُفن حيث قتل لمناسبة المكان لذلك، لبنوا فوقه قبة، وحددوا له قبرا يزار، كما بنوا على قبر ابي تمام في الموصل قبة. والاصح الارجح أن قبر المتنبي دفن في مقبرة فاندرس مع قبور تلك المقبرة.

رحم الله أبا الطيب المتنبي، وغفر له، وأسكنه غرف الجنان

((أقدم خارطة للكوفة، تبدو فيها خمسة طرق: من الشمال طريق واحد الى بغداد، ومن الجنوب طريق واحد الى الخورنق فحروراء فالبصرة، ومن الغرب ثلاثة طرق؛ طريق الى كربلاء، وطريق الى دمشق، وطريق الى الحيرة. ولا يوجد طريق منها الى الشرق أو واسط)).

القسم الثاني: الشعر

ملخـــص

كان المتنبي طموحا الى الملك، وطموحه أكبر من شعره، ولو أعطي المتنبي الملك ربما لم نعرفه شاعرا أبدا. شعر المتنبي في المرتبة الاولى من شعر فحول الشعراء العباسيين، وهو أفضل من الشعراء الامويين والعباسيين ومن تلاهم الى اليوم قاطبة، وهو يضاهي شعر الجاهليين.

شعره يجمع بين الاصالة والحضارة، فألفاظه في الاغلب جزلة فصيحة. أما معانيه فهي عميقة ودقيقة فهو كما وصف نفسه (رب المعاني الدقاق) وبعض ابياته له اكثر من تفسير، وبعضها لم يجد تفسيرا الى اليوم. والمتنبي عروبي؛ فلم يكتب على البحور العباسية المستحدثة: المجتث والمضارع والمقتضب والمتدارك، وهو يؤمن كالعروبيين بأن الشعر الذي يكتب على غير بحور الجاهليين ليس شعرا لذا كان ينكر قصيدته (ما أنصف القوم ضبه) لأنها على المجتث، ونحن ننكرها، وكتابتها على المجتث دليل قاطع على كذب حكاية قتل فاتك الاسدي المتنبي بسببها انتقاما لشرف ابن اخته ضبة.

مثَّل شعر المتنبي مراحل طموحه؛ شعره في صباه وفتوته يمثل الثورة والشكوى من الفقر. والروح الثورية هي سر قوة شعر المتنبي وعظمته وهي طابعه المميز، فهو يمثل الفتوة والعنفوان والمجد المنشود في زمن تراجع فيه كل شيء.

المرحلة الثانية من شعره مثلها مدة سيف الدولة؛ فبلغ شعره أعلى قمة فنية. لانه كان يجد في سيف الدولة (القائد المنقذ للعرب) فاستجابت قريحته لرغبته وقدم أفضل ما عنده، ولاسيما وصف ومدح شخصية القائد المنقذ من خلاله. ولكنه كان يمدح نفسه مع الممدوح لانه هو البطل فقط (كما يرى في اعماقه) فالقصيدة نصفها فخر بنفسه ونصفها مدح للأمير. وحين يئس من سيف الدولة تركه لكافور، وجاهر لكافور بطلب الولاية. فكانت الولاية واحساسه بمقاربة تحقيقه هدفه جعل فؤاده يتقدم لسانه، وشخصية الامير المرتقب فيه تعلو على شخصية الشاعر، فنزل شعره فنيا مرتبة:

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يرى من الشعراء

وحين لم يلبِّ كافور رغبته تورط بانقلاب عسكري ضده، فحبسه كافور في بيته، ثم استطاع الهرب الى العراق بفضل خبرته الجغرافية الفائقة. وشعره الحماسي في المرحلة الاولى والثانية، اقوى شعره على الاطلاق. والحماسة تلوّن كل اغراض شعره: المدح، الفخر، الرثاء، الوصف. بينما حين ترك طموحه وخفتت روح الحماسة، أصبحت اغراض شعره بلا حماسة. ففي أوان حماسته افتتح رثاء أم سيف الدولة بمطلع حربي فخم:

نُعِدُّ المَشرَفِيَّةَ وَالعَوالي وَتَقتُلُنا المَنونُ بِلا قِتالِ

بينما رثى أم عضد الدولة بمطلع بارد:

آخِرُ ما المَلكُ مُعَزّى بِهِ هَذا الَّذي أَثَّرَ في قَلبِهِ

وكان يفتخر في قصائده فيشاطر الممدوح القصيدة أوان طموحه وحماسته، ولم نجد له فخرا في ايران عندما ودَّع حماسته. وكان يمدح الممدوحين بالبطولات والانتصارات وان لم يكونوا اهل حرب. فحين مدح القاضي أحمد بن الحسين، وهو لا امير ولا قائد، وظف السيف والجيش والحرب عنوة في مدحه:

قَليلُ الكَرى لَو كانَتِ البيضُ وَالقَنا كَآرائِهِ ما أَغنَتِ البيضُ وَالزَعفُ

يَقومُ مَقامَ الجَيشِ تَقطيبُ وَجهِهِ وَيَستَغرِقُ الأَلفاظَ مِن لَفظِهِ حَرفُ

وحين مدح ابن العميد لم يذكر شيئا من ذلك. ومدح عضد الدولة فكان هذا النفس قصيرا؛ فسرعان ما يتركه الى غيره. وأروع ما قاله فيه تكثير القابه:

أَبا شُجاعٍ بِفارِسٍ عَضُدَ الدَولَةِ فَنّاخُسرو شَهَنشاها

أَسامِياً لَم تَزِدهُ مَعرِفَةً وَإِنَّما لَذَّةً ذَكَرناها

المرحلة الفنية الثالثة من شعره كانت في ايران؛ وصار شعره أقل درجة لأنه خلا من الطموح وصار اعزل من عنفوانه المعهود، وتمحض للشعر. وقد صرح في طريق عودته النهائية من الطموح انه صاحب قلم، والقلم خادم لصاحب السيف الذي به فقط يكتب المجد، وصار يركب حصانه للنزهة وليس للحرب. ولأول مرة وصف الطبيعة بإحساس

ومنطق الشاعر، بعيدا عن المجد وسوح الوغى وصهيل الخيول، بينما في الشام وصف بحيرة طبرية فاستعار الفاظ الحرب والقتل لمنظرها الخلاب.

المتنبي في شعره شاعر؛ فغنى الابداع ونال الخلود وكان افضل شعراء العربية، وكان أبو العلاء المعري يجعل المتنبي أشعر المحدثين، ويفضله عليهم كلهم. وكان شاعرا مؤرِّخا أيضا؛ رسم شجرة نسب سيف الدولة في بيتين من الشعر، واستفيد من شعره في معرفة لباس الجنود وعتادهم وانواع الخيول المستعملة مثلا البيض في الجبال والمناطق الباردة، والسود في الصحارى والمناطق الحارة، وتفاصيل المعارك مسجلا اياها بدقة وكأنه (Cameraman) وأمور كثيرة تحتاج المزيد من الدراسة في هذا الاتجاه. كما انه شاعر فيلسوف؛ فحكمه غطت كل جوانب الانسان والحياة، قال المعري معلقا على بيتين له في الحكمة (انهما يعدلان كتابا من كتب الفلاسفة).

كما انه جغرافي بامتياز، فله قصيدة جغرافية (المقصورة)، ومعلومات جغرافية مبثوثة في شعره استفاد منه ياقوت الحموي وغيره من الجغرافيين في نقل وضبط اسماء مدن وقرى وأمواه وطرق كثيرة. وهو باراسايكولوجي، وقد فسّرنا لقبه (المتنبي) من خلال خمس نبوءات في شعره.

وطريقة المتنبي في كتابة الشعر تقوم على التحضير الدقيق والتصنيع مراحلياً بعناية فائقة. فكل بيت يكون أساسه فكرة كبيرة ذات بُعد معرفي وعلمي مهم. وبعد الأساس المعرفي الذي يوضع باستيفاء ودقة يعلو البناء اللفظي. وهو جهد آخر كبير ومميز؛ فاختيار الألفاظ يتم في عملية معقدة، فهو صيَّاغ ماهر يختار الفاظه بدقة متناهية فلا يضع أي لفظ للمعنى، بل يضع احتمالات كثيرة ثم يقوم بعملية فرز دقيقة حتى يجد اللفظ الأصلح للمعنى، فعن بيته:

أَلغَت مَسامِعُهُ المَلامَ وَغادَرَت سِمَةً عَلى أَنفِ اللِئامِ تَلوحُ

قال المتنبي: (اخترتُ (ألغت) من أخوات لها عشر فقدمتها، وهي: نبذت، تركت، طرحت، عادت، نقصت، كرمت، ردَّت...). ولهذا قال المعري في سمة شعر المتنبي

هذه: (لا تظنَّنَ أنك تقدر على ابدال كلمة من شعره بما هو خير منها، فجرّب ان كنت مرتابا). والمتنبي لا يكرر ألفاظ الشعراء بل لا يكرر ألفاظه هو، وهذه سمة لا توجد في شعر أي شاعر آخر. فلو اردت البحث عن اي قصيدة له في الموسوعة الشعرية او اي برنامج فيه (صيغة البحث) فيكفي كتابة كلمتين متتاليتين لتخرج القصيدة التي تريدها.

ولفظ المتنبي يلبس الفكرة تماماً كالقميص فيتحرك فيه بلباقة وتعبيرية نهائية، ومع المعنى المقرر الذي يدل عليه اللفظ، يوحي اللفظ بمعانٍ أخرى تظهر أسلوب المتنبي المعروف. والموسيقى مصنع ثالث لإبداعه مع اللفظ والمعنى، فهو أكبر من وزن وبحر، بل محرك ابداعي يمنح النص روحه المؤثرة في روح القارئ. ويكمل ابداعه بالأليات البيانية والتركيبية والصور الشعرية وغيرها.

ان قصيدة المتنبي تنطلق من (مطلع مبهر) يبقى مدويا في النفس حتى يلتقي بضربة (الخاتمة الحاسمة) التي تعود بالقارئ الى المطلع. وأبياتها تتصاعد ابداعا وتتطور تعبيرا متصلة ببعضها؛ فنصه متلاحم وليس ابياتا متفرقة، كالبناء الشامخ الذي يرى قطعة واحدة وليس اجزاء. ولا يسير بك النص على وتيرة ابداع واحدة وان كانت محلقة كفاية، ولكن بين حين وآخر لا تمتلك نفسك فتصيح انبهارا. وتظل مشدودا ملتذا حتى ينتهي النص. وكأن المتنبي مطرب ونصه أغنية تطرب السامع حتى تنتهي.

أما أنا، فأرى كل الشعراء يؤلفون الشعر بمعاناة تكثر أو تقل حسب الموهبة، فعل من يصنع الشيء يدويا، والمتنبي يؤلف الشعر تلقائيا بلا معاناة، فعل الماكنة التي تنتج أسرع وأروع آليا.

نخلص الى أن المتنبي عدة شخصيات مبدعة في شخصية واحدة ابرزها (الشاعر)، وقد صدق ابن رشيق القيرواني في قوله: (وجاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس).

القالب الشعري

كتب المتنبي (٥٥٧٨) بيتاً في (٣٢٣) قصيدة ومقطوعة، موزعة على أحد عشر بحراً هي حسب كمية الأشعار في ديوانه الشامل: الطويل: (١٥٣٦) بيتاً، الكامل (٩٤٣) بيتاً، البسيط: (٨٣٧) بيتاً، الوافر (٧٩٠) بيتاً، الخفيف (٥٠٩) بيتاً، المنسرح (٣٦٧)، المتقارب (٣١٥) بيتاً، الرجز (١٥٩) بيتاً، السريع (٦٠) بيتاً، المجتث (٣٩) بيتاً، الرمل (١٤) بيتاً. وكان المتنبي لا يطيل قصائده فلم تصل قصيدة له الى (٧٠) بيتا، فحافظ على مستوى تحليقه الشعري وقوة قوافيه، فتقليل طول القصائد قضية ظهرت في العصر العباسي مع (التوليد) فالشاعر المولد صار تتعسر عليه القوافي القوية فيلجأ الى تقصير اشعاره، والمتنبي بوصفه شاعرا عباسيا يدرك انه مشمول بالحالة المولدية وان كانت ثقافته عالية تجعله يداني فحول العرب، لذا لم يطل قصائده.

وهذا دفعه الى كتابة المقطوعة الشعرية والاكثار منها فأفرط حتى جعلها مساوية تقريباً لعدد القصائد: فالمقطعات (١٥٦) والقصائد (١٥٩). وكان شيوع كتابة المقطوعات من سمات التوليد ايضا، قال ابن رشيق القيرواني (والشاعر إذا قطَّع وقصَّد ورجَز فهو الكامل). فتقصير الشعر واكثار المقطوعات عند المتنبي تجعله يعد (شاعرا مولَّدا) ولكونه (فحلا) فلا يعد مع فحول الجاهلية، بل مع فحول المولَّدين و(أفحلهم وأشعرهم).

الشعراء المتنبي

مثلما أعطى الدكتور زكي مبارك لنفسه الحق في تلقيب نفسه بـ(الدكاترة زكي مبارك) بدل (الدكتور زكي مبارك) لحصوله على ثلاث شهادات دكتوراه، فنحن نعطي لأنفسنا الحق في تلقيب المتنبي بـ(الشعراء المتنبي) بدل (الشاعر المتنبي)؛ لان المتنبي كتب الشعر شاعرا، ومؤرخا، وفيلسوفا وجغرافيا،. وسنتناول شعره في التخصصات الاربعة.

أولا- المتنبي شاعرا

ضفاف الشعر الثلاث

للشعر ثلاث صفاف: ضفة اللفظ التي تميز بها الشعر الجاهلي والاموي. ولم يتخلَّ الشعراء يوما من استحضار هذه الضفة لاستحالة كتابة (شعر عربي) بدونه، ويُقبل ذلك من كل شعر في العالم. وضفة المعنى التي تميز بها الشعر العباسي الحضاري لفقد الكثير من الفاظ وعبارات وصيغ الفصحى، ولازدحام المعاني وكثرتها بسبب التوسع في العلوم والتلاقح الفكري والادبي مع الامم الاخرى، ولأول مرة يظهر في العصر العباسي مصطلح (اللفظ والمعنى). أما ضفة الموسيقى فهي ترجع الى قابلية الشعراء على توقيع الالحان بالكلمات، وهذا محك يظهر صدق الشاعر كونه شاعرا، وقليلون جدا الشعراء الذين كانت الموسيقى جزءا واضحا في ابداهم الشعري أبرزهم المتنبي.

ضفة الألفاظ

اذا كان الشعر بناء؛ فالألفاظ أعمدته، والمعاني آجرّه. ولا يمكن أن تسمو قصيدة في البناء بالمعاني فقط بلا أعمدة الالفاظ. وكان ضعف الشعر في العصر العباسي والعصور المتأخرة يعود الى فقدانه (الخصوصية اللفظية). وحتى في عصرنا حين صار الشعر يتجه الى تقليد الموضات الشعرية الغربية القائمة على الرمز والايحاء والشكليات، ولا يهتم بالألفاظ الفصيحة غير المتداولة، نرى ان الشاعر الذي يتميز هو الذي يمتلك

خصوصية لفظية في الكلمات او التعبير فيبرز على غيره. فالسياب مثلا حداثوي ولكنه يركز على الالفاظ بنسبة واضحة، لذا نعد السياب (لا اراديا) افضل من بقية الشعراء الحداثويين لاهتمامه باللفظية اكثر منهم. بل نجد شعراءنا (الشعبيين) يحرصون على الخصوصية اللفظية فيضعون في قصائدهم – كشعراء الفصحى – مفردات نادرة الاستعمال قليلة السماع، لكن لا تحشر حشرا، بل المفردة متموسقة مع القصيدة غير متنافرة مع مفرداتها، فتبث فيها روحا جديدة لا تبثها المفردات المألوفة المسموعة. فترى القصائد تعرف وتتميز بألفاظ معينة. ومن ذلك قول المتنبي:

(جَفَخَت) وَهُم لا (يَجفَخونَ) بِها بِهِم شِيَمُ عَلى الحَسَبِ الأَغَرِّ دَلائِلُ

فـ(جفخت) بمعنى فخرت وبوزنها، ولكن المتنبي فضَّل جفخت لخصوصيتها اللفظية، فهي معروفة عربيا ولكن قليلة الاستعمال في عصره فأعادها الى الحياة وحُسبتْ له، كما انها ميَّزت القصيدة. وقوله:

وَما (لاقَني) بَلَدٌ بَعدَكُم وَلا اِعتَضتُ مِن رَبِّ نُعمايَ رَبْ

لفظة (لاقني) فصحى نادرة، أراد المتنبي باستعمالها التميز اللفظي، اضافة الى التعبير عن انشداده الى التراث الشعري العربي اللفظي الباذخ؛ فـ(لاقني) تعني امسَكني وحبسَني، فالعرب تقول (لا يَليق بكفه الدرهم، أي لا يبقى).

وكذلك اختياره عبارة (ابن بجدتها) التي تعني (الشخص الملمّ العارف بشؤون الشيء، المتقن له، والذي يعرف حقيقته وخفاياه) وقد ابهرت الشعراء والادباء فاكثروا من استعمالها وكأنَّ المتنبي هو مبدعها:

حَتّى أَتى الدُنيا (اِبنُ بَجدَتِها) فَشَكا إِلَيهِ السَهلُ وَالجَبَلُ

وتكلم النقاد والعلماء القدماء والمحدثون عن المظاهر اللفظية في شعر المتنبي كثيرا. قال ابن فورجَّة في شرح البيت:

دونَ التَعانُقِ ناحِلَينِ كَشَكلَتَي نَصبٍ أَدَقَّهُما وَضَمَّ الشاكِلُ

(قال كشكلتي فتح ولم يقل كشكلتي نصب لحالين يلطف شأنهما. الاولى: ان الفتح من علامات البناء، والشكلتان اذا اجتمعتا كانت للتنوين، ولا تنوين مع البناء. والثانية: انه لمَّا اضطر الى ذكر الضم بمعنى الجمع، خشي أن يقول كشكلتي فتح ادقّهما وضم الشاكل، فيتوهم السامع انه يريد ضمة البناء الكائنة شكلة، وهو يعني جمَع الشاكل، وداناهما وقرّب احدهما الى الاخر، والضم والفتح من باب البناء).

وقال الحريري في (درة الغواص في أوهام الخواص) في شرح قوله:

فَآجَرَكَ الإِلَهُ عَلى عَليلٍ بَعَثتَ إِلى المَسيحِ بِهِ طَبيبا

ان في البيت معنى خفيا عبَّر عنه بمظهر لفظي بناءً على حقيقة نحوية وهي (ان (بعث) يتعدى بنفسه مع العاقل، ويتعدى بالحروف مع غير العاقل. فعدّاه المتنبي بنفسه مع غير العاقل لصنع هذا المعنى وهو: ان العليل لاستحواذ العلة عليه في جسمه وحسه قد التحق بحيز ما لا يتصرف بنفسه).

وصنع معنى لطيفا بناء على قاعدة نحوية وهو مظهر لفظي في قوله:

إِذا كانَ ما تَنويهِ فِعلاً مُضارِعاً مَضى قَبلَ أَن تُلقى عَلَيهِ الجَوازِمُ

وعدَّ المرحوم الدكتور هادي الحمداني المتنبي لاستخدامه حروف الجر بكثرة شاعرا (يهتم باللفظ أكثر من المعنى). ومن ذلك قوله:

وَتُسعِدُني في غَمرَةٍ بَعدَ غَمرَةٍ سَبوحٌ لَها مِنها عَليها شَواهِدُ

فجاء بأربعة حروف جر في بيت واحد.

كذلك اتكاؤه على الحروف الشديدة (الهمزة والعين والهاء) ضمن اولويات ابداعه. ورأى الدكتور علي كاظم أسد أن المتنبي افاد من الاسلوب الاستهلالي للقرآن الكريم الذي يبدأ بالهمزة والحروف المجهورة الشديدة الاخرى مثل: (ألم، ألر، حم).

وأكبر تجلٍّ لفظي في شعره جاء باستخدامه الالفاظ الخاصة بكل غرض، ولاسيما الحماسة فانه أورد أسماء الاسلحة واللباس الحربي وتفاصيل ساحة المعركة وكل ما يتعلق بالحرب من جوانب مادية ونفسية بمهارة فائقة وتميز واضح.

ضفة المعاني

في شعر المتنبي تتفجر المعاني كالبراكين، وتتوالد كأمواج البحر، وتزخ كالمطر. فهو أكثر الشعراء معاني، قال ابن الاثير في الاستدراك (وقد غربلتُ الاشعار قديمها ومحدثها، وتأملتها تأملَ المنتقد، فما وجدتُ لشاعر ما لأبي تمام ولأبي الطيب من المعاني). وليس ما أخذ عليه على انه (سرقات) الا دليل هذا الاتساع المعنوي الذي تقدم به الشعراء قديما وحديثا.

واذا بحثنا في حماسياته في المدح والفخر والحرب وغيرها، سنجد انها قامت على خلق معان دقيقة غير مسبوقة بل هي مخترعات، ومنها:

وَاِستَعارَ الحَديدُ لَوناً وَأَلقى لَونَهُ في ذَوائِبِ الأَطفالِ

فالشعراء كرروا هذا المعنى الا انهم لم يخرجوا جميعا عن ان (الخوف يشيب الطفل) بينما المتنبي – كما يقول ابن الاثير – (تلطف في هذا المعنى فأخرجه في صورة عجيبة كما ترى). ونبَّه العكبري في شرح ديوان المتنبي على ان المتنبي تفرد في مخترعاته؛ فاذا قلده شاعر نكص على عقبيه. فقول المتنبي:

وَتَركُكَ في الدُنيا دَوِيّاً كَأَنَّما تَداوَلُ سَمعَ المَرءِ أَنمُلُهُ العَشرُ

قلده بعضهم فقال:

فاحش صماخيك بسبابتي كفك تسمعْ لدموعي خريْ

قال (وهكذا من يتعرض لمعاني المتنبي يجئ شعره أبرد من الزمهرير).

ومعانيه تستنفد أقصى طاقة الفاظه مما يحقق انسجاما ابداعيا على كل الصعد، الموسيقي والتعبيري والشعوري، وهو ما يذكرنا بمعلقات العرب الخالدة كمعلقة امرئ القيس ولبيد وعنترة. ومن ذلك قوله:

أمُعفِّرِ اللّيثِ الهِزَبْرِ بسَوطِهِ لمن ادَّخرْتَ الصّارمَ المصقولا
وردٌ إذا وردَ البُحيرة شارباً وردَ الفراتَ زئيرُه والنيلا
مُتخضّبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ في غيْلِهِ من لِبْدَتيْه غيلا

ما قوبلَتْ عيناهُ إلاَّ ظُنَّتا تحتَ الدُّجَى نارَ الفريقِ حُلولا
في وحدةِ الرُّهْبانِ إلاَّ أنَّهُ لا يعرفُ التَّحريمَ والتَّحليلا
يطأ البرى مُترفّقاً من تيهِهِ فكأنَّهُ آسٍ يجسُّ عليلا
ويرُدُّ عُفرتهُ إلى يافوخِهِ حتَّى تصير لرأسِهِ إكليلا
وتظنُّه ممّا يُزَمجرُ نفسُهُ عنها لشدَّةِ غيظِهِ مشغولا
قصرتْ مهابتُهُ الخُطى فكأنّما ركبَ الكميُّ جوادهُ مَشْكولا
ألقى فريستَهُ وبربر دونها وقربْتَ قُرْباً خالَهُ تَطْفيلا
فتشابه الخلقانِ في إقدامه وتخالفا في بَذْلكَ المأكولا
أسدٌ يرى عُضْوَيه فيكَ كليهما متناً أزلَّ وساعداً مفتولا
ما زالَ يجمعُ نفسَهُ في زورهِ حتَّى حسبْتَ العرضَ منهُ الطُّولا
ويدقُّ بالصَّدرِ الحِجارَ كأنّهُ يبغي إلى ما في الحضيض سبيلا
وكأنَّهُ غرَّتْهُ عينٌ فادّنى لا يُبصر الخطبَ الجليلَ جليلا
أنَفُ الكريمِ من الدَّنيَّةِ تاركٌ في عينِهِ العدد الكثير قليلا
سبق التقاءكَهُ بوثبةِ هاجمٍ لو لمْ تُصادمْهُ لجازكَ ميلا
خذلتْهُ قوَّتُه وقد كافحتَهُ فاستنْصَر التّسليمَ والتَّجديلا
قبضَتْ منيتُهُ يديْهِ وعُنقهُ فكأنَّما صادفتَهُ مغلولا
سمعَ ابن عمّته بِهِ وبحالِهِ فنجا يُهرولُ منكَ أمسِ مُهَولا
وأمرُّ ممّا فرَّ منهُ فرارهُ وكقتْلِهِ ألاّ يموتَ قتيلا
تلفُ الَّذي اتّخذ الجراءةَ خُلّةً وعظَ الَّذي اتّخذَ الفِرارَ خليلا

وهذا منحه (قوة التصوير) كما ترى، والتي جلَّتها ملامحه الحربية المتفردة.

تناصات المتنبي العالمية

وتسمو معانيه فتعبر مكانه العربي وزمانه العباسي الى العالمية؛ فقد بلغت معانيه عمقا وسموا انسانيا رفيعا ما جعله يتناص فيها مع عمالقة الأدب والفكر في العالم. وكان لابد لشاعر إنساني كبير بحجم المتنبي أن يتناص مع شعراء وعلماء وثقافات إنسانية حية. ونقف هنا عند بعض هذه التناصات لتأكيد عالمية معانيه وعمقها، وعبوره الزمكاني.

أولا- المتنبي وشكسبير

نقرأ للمتنبي تناصا مع شكسبير عملاق شعراء الدنيا في صورة هي أكثر من رائعة ونادرة تصور الغدر والخيانة. ففي مسرحية (تاجر البندقية = The Merchant of Venice) تمنح بورشيا حبيبها بسانيو خاتم الحب وتسأله ان يعدها بألا ينزعه من إصبعه حتى الموت. الا انه اضطر إلى جعله ثمن خلاص صديقه انطونيو من الموت. وتلتقي بورشيا حبيبها وتجده من دون الخاتم، فيعتذر لها. وهنا تبدأ الصورة الشكسبيرية، يقول بسانيو:

Portia, forgive me this enforced wrong,

And, in the hearing of these many friends

I swear to thee, even by thine own fair eyes,

Wherein I see myself-

(بورشيا، سامحيني على هذا الخطأ غير المتعمد، وأمام هذا الجمع من الأصدقاء،

اقسم على ذلك بعينيك اللتين أرى بهما نفسي)

فتجيبه بورشيا متحدثة إلى جمع الأصدقاء:

Mark you but that!

In both my eyes he doubly sees
himself;

In each eye one; swear by your
double self,

And there's an oath of .
credit

لاحظوا هذا جيداً!

في كلتا عينيَّ يرى صورته المزدوجة؛

في كل عين واحدة.. أقسم بازدواجيتك،

عندها يكون قَسَمك موثوقاً به.

إن طرافة الصورة تأتي من حقيقة ان المقتربين من بعضهما يرى كل واحد منهما صورته في عين الآخر؛ فبورشيا التي اعتادت حديث القرب مع بسانيو تراه كاذبا لا يقسم بعينيها بل بصورته المزدوجة التي تنطبع في كلتا عينيها عند كل لقاء.

وهذه الصورة ذاتها رسمها المتنبي وهو يصف حبيبته التي فارقها في الشام. وحبيبته المزعومة كانت رمزا لسيف الدولة الذي غدر به بعدما أحبه واقتربا من بعضهما البعض في لقاءاتهما حتى كان الواحد منهما يرى صورته في عين الآخر شأن بورشيا وبسانيو، يقول المتنبي:

شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها

فقبلت ناظري تغالطني وإنما قبلت به فاها

أي ان حبيبته قبّلت عينيه على انها مجبرة على فراقه، ولكنها في حقيقتها مغالطة كانت تقبل فمها وصورتها المنطبعة في عينيه. وهي صورة مشتركة واضحة التناص.

والراجح أن الذي جمع هذين العملاقين في هذه الصورة الخيال السامي والشاعرية المتفردة، وليس التأثر والتأثير لبعد الزمان والمكان.

ثانيا- المتنبي وميجل دي سرفانتس سفدرا

في أبيات له قالها في معركة الحدث (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) يعرض المتنبي صورة ساخرة لجبن الروم، تناصَّ فيها مع الروائي الإسباني الشهير ميجل دي سرفانتس سفدرا (١٥٤٧- ١٦١٦) في شخصية روايته المثيرة للجدل (دون كيشوت)، التي مثلت فارساً يعيش في عالم بعيد عن الحقيقة. وقد أراد به سرفانتس السخرية من الأبطال الرومانسيين وقصص البطولة المدَّعاة حتى زمانه، وقد راجت فيه تلك القصص بشدَّة، في وقت كان الواقع الغربي يتناقض معها؛ فهو مليء بالهزائم أمام الأتراك المسلمين، وقد عانى الكاتب نفسه ذلك؛ فقد جُرح في إحدى تلك المعارك، وهي معركة (ليبانتو) وشلت ذراعه مؤقتاً، وأسره الأتراك وسجنوه في الجزائر خمس سنوات (١٥٧٥- ١٥٨٠) ولم يطلق إلا بفدية باهظة من أهله، على انه سجن مرات عدة في بلاده لعجزه عن دفع ديونه المتراكمة المستمرة.

صمم سيرفانتس شخصيته ليكون جباناً حد الضحك (طويل ونحيل يقارب الخمسين من العمر، يبدو خداه وكأنهما يقبلان بعضهما داخل فمه، ورقبته طولها نصف ياردة). وعلى الرغم من كثرة تفسيرات (دون كيشوت)، فهو مثير للجدل والنقاش النقدي منذ القرن الثامن عشر، إلا أنه يطابق صورة المتنبي التي طرحها صفة للجبان الرعديد، فالضعف الجسماني لدون كيشوت، واختياره لخصومه يقنعان بصفة الجبن، فقد هاجم أولا طاحونة هواء، وكان عدوه الثاني قطيعا من الأغنام هجم عليه بقوة وشراسة، أي انه يختار أعداء لا يملكون قوة، أو هو يصارع اللاشيء ولكن عندما يظهر الرعاة يؤدبونه؛ أي إذا ظهر المقاتل الحقيقي فانه يطوي سيفه ورمحه وبطولاته الأسفنجية. وهو عين وصف المتنبي للروم في قوله:

وَالعِيانُ الجَلِيُّ يُحدِثُ لِلظَنِّ زَوالاً وَلِلمُرادِ اِنتِقالا

وَإِذا ما خَلا الجَبانُ بِأَرضٍ طَلَبَ الطَعنَ وَحدَهُ وَالنِزالا

أي أن العيان يزيل ما يحدث الظن دائما، وان الجبان يظن نفسه شجاعا إذا كان وحده فيتخيل نفسه قادرا على قهر كل شيء عظيم، فيقوم بطعن الهواء ونزال اعداء وهميين.

ونحن نرجح اطلاع سرفانتس على شعر المتنبي والتأثر به في هذا المعنى؛ فقد كان المتنبي أكبر رمز ثقافي وشعري عربي في الأندلس. وقد أشار ابن رشيق الأديب الناقد المغربي القريب من اسبانيا إلى ذلك بقولته الشهيرة (وجاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس). كما أن الناقد الاسباني المعروف (اميليو غرسيه غومث) يؤكد هذه الحقيقة بقوله: (إن الأندلس لم يتخلف عن بقية العالم العربي في عبادته للمتنبي، ولقد حدث هذا في زمن مبكر جداً، بل يمكن القول: انه حدث والشاعر نفسه على قيد الحياة. وعندما نقرأ ديواناً أندلسياً نلحظ في بعض الحالات ونظنّ أن وراء هذا الشعر تكمن أفكار وصور فنان الكوفة العظيم).

ثالثا- المتنبي والخرافة الأوربية

تناصَّ المتنبي مع الثقافة الشعبية الغربية في شخصية (روبن هود) البطل الذي كان يجيد رمي القوس بشكل خرافي فكان يصيب أدق الأمكنة. ووقف في إحدى المرات ليسجل اكبر بطولة في رمي القوس؛ عندما استطاع بدقة خارقة أن يصيب برأس السهم الثاني عقب السهم الأول حتى صنع قضيبا من السهام المتراصة.

إنَّ هذه الفكرة عينها جسدها المتنبي؛ ففي قصيدته التي مدح بها علي بن سيار التميمي، وكان يتعاطى رمي النشاب، يصفه بهذه الصفات الروبنهودية ذاتها فهو يرسل السهام إرسالا واحداً لا تعثر فيه فيصير النصل من السهم الثاني مكان الفُوْق (وهو موضع السهم من الوتر) للسهم الأول! حتى تكاد تتصل قضيباً لولا ما يعتري ذلك من الكسر. على ان الكسر لا يبطل الصورة المشتركة فان المتنبي خشي ان يتهم بالمبالغة

المفرطة فاحترز. ويصل عجب المتنبي إلى الظن بان هذه السهام التي يستعملها الأمير ذكية مثل الاسلحة الذكية في زماننا. يقول المتنبي:

إذا نُكِبَت كِنانَتُهُ اِستَبَنّا بِأَنصُلِها لِأَنصُلِها نُدوبا
يُصيبُ بِبَعضِها أَفواقَ بَعضٍ فَلَولا الكَسرُ لَاِتَّصَلَت قَضيبا
بِكُلِّ مُقَوَّمٍ لَم يَعصِ أَمراً لَهُ حَتّى ظَنَنّاهُ لَبيبا

وإذا كان المتنبي قد المّ بأخبار (أهل النوبة) جنوب مصر فألهمته صورته (التناصية) فان الصورة التي رسمها اقرب إلى الثقافة الشعبية الأوربية (الروبنهودية) منها إلى أخبار أهل النوبة. وكان النوبيون أهل إجادة عجيبة غريبة في رمي النشاب فإنهم كانوا في معاركهم يصوّبون على أحداق العيون فيصيبوها، لذا أطلق عليهم (رماة الحدق). وبسبب إجادتهم الرمي الهائلة فشلت حملات الفتح الإسلامي للنوبة التي قادها عمرو بن العاص وعقبة بن نافع، مما اضطر المسلمين إلى أن يوقعوا مع أهل النوبة معاهدة صلح سنة (٣١هـ) عرفت بمعاهدة (البقط)، ولم تفتح النوبة إلا إلى العصر العباسي!!!

إلا أن هذا التناص النادر يعود الى الخيال الخصب، لأنه ارتفع عن مستوى الواقع النوبي الى مستوى آخر حققته الخرافة الأوربية الشعبية، ولكننا لا نرى ان المتنبي تأثر بالخرافة الأوربية لبعد المتنبي عن تلك الثقافة، بل هو التقاء خيالي سامي.

رابعاً- المتنبي والخرافة العالمية

استلهم المتنبي بعض الافكار التي انتجها الفكر الشعبي عبر الاجيال في حِكَم وخرافات واساطير ذات مغزى عميق مؤثر؛ لانها تشرك المتلقي فيها بوصفه جزءاً منها، مما يجعل لهذه الافكار ألفة في النفوس، وقبولا تلقائيا، ورغبة فائقة. ونجد المتنبي يتناص مع ثقافة الخرافات التي تداولتها أمم الأرض اجمع. وقد صدرت مؤلفات أخيرة أكدت حقيقة وجود خرافات وأساطير هي ليست حكراً على امة أو شعب بل هي معروفة في مشارق الأرض ومغاربها. ومن هذه الخرافات العامة خرافة المَّ بها المتنبي ووظفها

في شعره وهي من الأحاديث عن الجن وكونهم يختبئون في (الصور) ويتجسدون بها لأنهم أشباح وأرواح بلا أجساد.

ولعل وراء ذلك فكرة دينية نقلتها الأديان السماوية الثلاثة، وقد جسَّدها ووضحها جون ملتون في ملحمته (الفردوس المفقود) وهي ان الشيطان عندما طرده الله (عز جل) قرر ان يحاربه بصنع تماثيل على هيأة الملائكة الذين اصطحبهم، ودعا الناس إلى عبادتها من دون الله وهي الأصنام التي عرفتها فيما بعد ارض كنعان والبلدان المتاخمة لها.

ومن هنا ارتبط الشيطان والجن والأرواح بالتماثيل والأصنام والصور، وعلى هذا الأساس كان موقف الفقه الإسلامي من التماثيل والصور موقفا رافضاً متشدداً. وعلى الرغم من استحكام الدين وزوال الوثنية فان الرسم بقي محظوراً. وهذا السبب يقف وراء الغموض الذي يلف حياة أكبر رسام ظهر في العصر العباسي وهو يحيى بن محمد بن يحيى بن أبي الحسن كوريها المعروف بـ(الواسطي)؛ فبسبب موقف الفقه الإسلامي المعارض للرسم، جهلوا حتى سنة وفاته فقالوا بعد سنة (٦٣٤هـ) وهو التاريخ الذي وضعه هو على آخر لوحاته بخطه.

ولكن وقر في الفكر الجمعي الشعبي ارتباط الجن والأرواح بالتماثيل والصور فكان المسيحيون، كما تذكر روايات وأفلام مثل (The others) (الآخرون) و(Poster Ghosts) (أشباح الصور) يصورون الموتى قبل دفنهم على أمل عودة أرواحهم الى سكنى الصور فيكونوا حاضرين في بيوتهم. فبعد أن تفارق الأجساد، تهرب إلى تلك الصور وتتجسد بها. ولعل هذه العادة قديمة عندهم؛ فقد ورد عن أم سلمة (ﷺ) أنها أخبرت الرسول (ﷺ) بمشاهدتها كنيسة في الحبشة يفعل فيها مثل ذلك.

وقد استلهم المتنبي تلك الصورة الشعبية فأجاد رسمها بشكل أذهل ابن جني فوقف إزاءها متحيرا مبلساً فقال: (ما أعلم انه وصفت صورة بأنها تكاد تنطق بأحسن من هذا)، وقد جاءت صورة المتنبي في بيت من قصيدة مدح بها بدر بن عمار. يقول المتنبي:

سَلَكَت تَماثيلَ القِبابِ الجِنُّ من شَوقٍ بِها فَأَدَرنَ فيكَ الأَعيُنا

أي ان الجن اشتاقت إلى رؤيتك أسوة بالإنس (أراد حب الثقلين له) فلما لم تستطع ذلك من دون أن تتجسد بشيء، فإنها توارت في تماثيل القباب فأدارت النظر فيك من خلال عيون التماثيل. وهذا التناص يشير إلى أن المتنبي لم يهمل فكر العامة فكان جزءاً من ثقافته الشاملة، وانه في هذا التناص متأثر حتماً بتلك الثقافة.

خامسا– المتنبي ونيتشه

كان لابدَّ لشكسبير حامل لواء الحرب الشاملة للتغيير الشامل، واستعمال القوة المفرطة بلا هوادة او رحمة، أن يتناص مع (الفيلسوف نيتشه) صاحب فكرة (السوبرمان الانسان الخارق) فكلاهما رسم صورة البطل الخارق الذي يكون محله الذرى دائماً. قال نيتشه: (إنكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تتشوفون الى الاعتلاء، أما أنا فقد علوتُ حتى أصبحتُ أتطلع إلى ما تحت قدمي). وقال المتنبي:

واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفاً تحت أخمصيَّ الأنامُ

وآمن كلاهما بالقوة واستهجن الرحمة؛ لان القوة من مبادئ التغيير قال نيتشه: (احترسوا من الرحمة لانها تعقد فوق الإنسان غماما متلبدا. وقال المتنبي:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحمِ

وإن هذا الإحساس جعلهما يظنان أن الحرب السبيل الوحيد للتغيير؛ ولذا آمنا بالحرب حلا لا بديل لها وروَّجا لها. قال نيتشه: (لقد طال انتظار غيومي بين قهقهة الرعد، وقد آن لي أن أرشق الأعماق بقذائف بَرَدي) وقال المتنبي:

لقد تصبرتُ حتى لات مصطبرٍ فالآن أقحمُ حتى لات مقتحمِ

وقال نيتشه في الحرب ايضا :" عليكم أن تحبوا السلم بوصفه وسيلة توصلكم إلى حروبٍ جديدة). وقال المتنبي أيضاً:

وإن عمرتُ جلتُ الحرب والدةً والسمهريَّ أخاً والمشرفيّ أبا
بكلِّ أشعثَ يلقى الموت مبتسماً حتى كأنَّ له في قتله أَرَبَا
قُحٍّ يكاد صهيل الخيل يقذفه عن سرجه مَرَحَاً بالغزو أو طربا

فالموتُ أعذرُ لي والصبرُ أجملُ بي والبرُّ أوسعُ والدنيا لمن غلبا

فتلك التناصات تنبي عن مستوى أعمق وأسمى من الاستعمال المعنوي في الشعر الذي راج في العصر العباسي، بل كان أوضح سمات الشعر العباسي. وهذه الميزة في المعاني مع الابداع المنقطع النظير في تجسيدها شعراً، لم تتحصل لغير المتنبي من شعراء العصر العباسي وغيره من عصور الشعر الى اليوم، فهي من أعمدة إبداعه.

ضفة الموسيقى

السحر والموسيقى والشعر ولدت مع الانسان البدائي الفطري، ولا يمكن التفريق بينها منذ ولدت والى الابد. وحين تطورت قابليات الانسان البدائي على التعبير والتحدث صار لديه نوعان من الكلام: (كلام اعتيادي لحياته اليومية) لا يتعدى حدود (الافهام) و(كلام شعري يناسب طقوسه العامة). وهذا الكلام يتميز بـ(الايقاع، والخيال، ورهافة الحس، مع حركات تمثيلية مسرعة). واذا خلا هذا الكلام الشعري من قوانين الشعر المعروفة فهو (مادة شعرية خام) تقوم على الموسيقى والخيال وتغريب الالفاظ او تحريرها من معانيها القاموسية.

ويقول بروكلمان ان الشاعر خرج من عباءة الكاهن الساحر، وسجع الكهان معروف. ويرى النقاد ان الشعر العربي ولد من سجع الكهان، وحداء الابل، وايقاع اغاني العمل. وقد أوضح الجواهري ذلك في قوله:

عبدتُ الشعرَ والسحرَ وكلٌّ منهما كفرُ

وهذه النظرية تجعل الشعر فطريا مرتبطا بالمجتمعات البدائية والفطرية. ويركز جورج تمسون على المجتمع الايرلندي والشعر الايرلندي لفطرتيهما. ونجد مشابها له العرب والشعر العربي فقد نشأ الشعر العربي في بيئة منغلقة قليلة الحظ من الحضارة والاختلاط بالأمم فعبّر العربي بفطرته وانتج شعرا ضخما فطريا قليل الحضارة، وسيفقد هذا الشعر الكثير من مقوماته التعبيرية الفطرية في علو موسيقاه وجرس الفاظه بعد ان يختلط بالأمم المجاورة (في العصر العباسي) ليصبح شعرا حضاريا فيه حظ من العقل والتعبير الصاحي. ونجد كل الامم في بدائيتها تقول (هذا الشعر)، وهكذا كانت الملاحم التي سبقت ظهور الفلسفة كالالياذة والاودسة عند الاغريق، والمهابهارتا عند الهنود، الانياذة الرومانية، وملحمة كلكامش البابلية وغيرها. والعرب لم يعرفوا الملحمة ولكنهم كتبوا شعرا ملحميا ايضا كأناشيد البطولة والنصر والحماسة كما في حماسيات عنترة بن شداد والمتنبي.

وهكذا فالموسيقى ليست كمالية في الشعر الحقيقي، بل ان الشاعر الحقيقي هو القادر على ادارة القصيدة موسيقيا، وجعل الموسيقى مشاركا في ابداعها. وربما قدّمت الموسيقى قصيدة نابهة دون الحاجة الى الفاظ ومعان ذات قيمة، كما في قصيدة (بسطت رابعة الحبل لنا) لسويد بن أبي كاهل، التي قال عنها طه حسين (ليس فيها غير الموسيقى).

وقلائل هم الشعراء الموسيقيون، وقلائل هي القصائد التي وافاها الطبع الموسيقي وجادت بها القرائح الموسيقية. وهذا يفسّر اشتهار قصائد معينة للشاعر الواحد. والشاعر الموسيقي يفجر موسيقى اضافية داخل اطار البحر العروضي، فتكون للقصيدة موسيقى التفعيلات وموسيقى الكلمات، وكأنه يكتب ببحرين، بتفعيلات البحر وتفعيلات مغايرة يصنعها تصرفا بالتفعيلات، فتولد موسيقى مزدوجة طاغية مأثرة. وكان الاعشى شاعرا موسيقيا حقق هذه الغاية، وسُمّي (صناجة العرب) لانك إذا أنشدتَ شعره يخيل لك أن شخصا آخر ينشد معك! ولا يضاهي الاعشى أحد من الشعراء موسيقيا، ولا بعده في الترتيب بل نقفز الى (المتنبي) في العصر العباسي، ثم الى (السياب) في العصر الحديث. فهؤلاء هم (المثلث الموسيقي في الشعر العربي) أو (الايقونات الثلاث في الموسيقى الشعرية العربية).

كانت الموسيقى طيّعة في يد المتنبي، يضخها في القصيدة ضخا فتأتي بالمعجز. ويتحكم ويتلاعب بها كما يشاء وحسب الحاجة والموقف، وتلك من معجزات المتنبي الشعرية. فالموسيقى الشعرية في قصائده الشامية (صاخبة) وفي السيفية (قوية رصينة) وفي كل منهما الموسيقى باذخة فاعلة في النص مؤثرة في الاسماع. ثم تقل في الكافوريات فهي (متضادة فيها حزن وفرح، وامل ويأس، وخوف واندفاع). ثم تهبط في العضديات وتتسم بأنها (تأملية صامتة).

وكان المتنبي يراعي القالب الموسيقي للبحور دون ان يكتفي بها في صناعة الموسيقى. فاستعمل بحر الطويل (بحر البسالة والجلالة والجد)، في المدح الملحمي، فأكثر منه في حربيات سيف الدولة وتركه في حربيات عضد الدولة، مستعملا بحوراً لا تصلح في إيصال صوت السلاح والنقل الحي لوقائع الحرب وشدّ النفس بها واليها، وهي

البحور القصيرة كمجزوء الكامل او الثقيل النغم جداً كالمنسرح وقد بدا انه كان يكره نفسه عليه، فأدى هذا إلى تحطيم انتصارت عضد الدولة بطريقة ذكية موسيقية؛ لأنه لم يؤمن بمعاركه وانتصاراته غير الموافقة لمساره، بينما كان استعمال بحر الطويل لحربيات سيف الدولة إضافة فنية أعلت شعره وقوّت انتصاراته، وأيّدت نصره، مما جعل القصيدة باختيار هذا البحر موفقة في تحقيق الهدف الذي كتبت من اجله.

وكان الاجتهاد سمة واضحة في موسيقى شعر المتنبي. بدءاً اختار عشرة بحور من الاثني عشر بحراً الجاهلية؛ مستبعداً منها المديد والهزج لأنهما بحران راقصان لا يتفقان مع تطلعاته الجادة. أما المجتث وأخوته البحور العباسية الثلاثة: المضارع، المقتضب، المتدارك، فلم يعترف بها بحورا، لذا فالقصيدة اليتيمة ديوانه في هجاء ضبة هي مدخولة عليه كاذبة موسيقيا فضلا عن الاسباب الفنية والاخلاقية الاخرى التي لا تسوّغ نسبتها الى المتنبي.

واختار المتنبي لقصيدة المدح سبعة بحور فقط هي حسب التسلسل في الاستعمال: الطويل (٣٣) قصيدة مدح، الكامل: (٢١)، البسيط: (١٤)، الوافر: (١٤)، الخفيف: (١٠)، المنسرح: (٩)، المتقارب (٤). وكان المتقارب في نظر المتنبي لا يصلح كثيراً للمدح.

والسريع والرمل بحران لم يعبأ بهما المتنبي كثيرا، فجاءا في ذيل قائمة بحوره. وما كتبه عليهما ليس ضمن المختار من شعره، وكأنه أراد أن يكتب عليهما شيئاً فحسب. كتب على السريع قصيدتين الأولى طويلة في رثاء عمة عضد الدولة والثانية قصيرة في هجاء كافور، كما كتب عليه ست مقطوعات في أغراض آنية. وبهذا فهو لم يجده يصلح لغرض أساسي كالمدح لعدم فخامة موسيقاه، ولم يجد نغمته تسعفه في كتابة شعر كثير عليه. ولكون المتنبي جاداً وصاحب طموح ينأى به عن طلب اللهو، لم يجد في الرمل الغنائي مأرباً ومن ثم لم يستعمله إلا في قصيدة قصيرة (تجريبية) قالها ارتجالاً واستعمل البحر تاما في الصدر والعجز مخالفا العروض، وعدّ عيبا عليه، وكتب عليه مقطوعتين من خمسة أبيات.

وأبدع في الرجز فكان بحرا محترما في ديوانه. كتب تسعة أعمال رجزية موزعة على (أربع أراجيز) و(خمسة مواقف آنية). وأراجيزه لم يُخلها تماماً من روح القصيدة. وأطول اراجيزه وأهمها وأطول اراجيزه وأجودها التي ارتجلها مصاحبا عضد الدولة في رحلة الصيد؛ لما فيها من معانٍ ودلالات، وفيه تصرف (جُملتاني) فريد وهو قوله:

فَلَم تَدَع مِنها سِوى المُحالِ

في (لا مَكانٍ) عِندَ (لا مَنالِ)

فهذه التركيبة الأسلوبية (لا مكان) و(لا منال) لم يستخدمها شاعر قبله، وهي من التصرفات الجديدة والجميلة في اللغة الشعرية، وتشبه اللفتات الحداثوية التي جنَّ بهاَ جيلنا المعاصر، بل هو سبق الحداثويين اليها والى ابتكارات مثلها. كما كتب ثلاثة أبيات قريضية على الرجز مطلعها:

أَيَّ مَحَلٍّ أَرتَقي أَيَّ عَظيمٍ أَتَّقي

ولابد من ذكر اجتهاد المتنبي الموسيقي في كتابة الرسائل – القصائد (القصائل). فقد اختار لها بحر المتقارب. والقصائل على الرغم من أخذها طابع الرسالة إلا أنها أو أغلبها موفور الحظ من الفن، لذا فهي تلحق بالشعر الفني لا التاريخي أو أحد أنماط الشعر غير الفنية. وكان اختيار المتقارب اجتهاداً من المتنبي بوصفه النمط النغمي الملائم لها؛ وذلك لأنه يشبه الرجز في كثرة التجوز الموسيقي فيه، الا ان تجوزه ليس في الزحافات كالرجز بل في العلل. اذ يجوز في عروضه وضربه أن تأتي تفعيلته (فعولن) بأربع حالات: أصلية (فعولن)، مقبوضة (فعولُ)، مقصورة (فعولْ)، محذوفة (فعوْ). إلا أن المتقارب من وجهة نظر المتنبي التطبيقية أرفع نغمياً من الرجز ومن ثم فهو الأفضل في تمثيل نمط القصالة، ويلاحظ أن المتنبي، دون سواه من الشعراء ممن كتبوا القصائل، اجتهد في اختيار البحر الشعري الملائم للقصالة التي تمثل حالة وسطى بين النثرية والشعرية العالية. وقد وجد في نغمة المتقارب خير ممثل لهذا الغرض ففرغه له، لذا وجدناه يعفيه من غرض المدح.

ويكمل موسيقى البحر موسيقى القافية. اذ تعمل نغمة القافية مع نغمات البحر الشعري على خلق القالب الموسيقي للقصيدة، فهي أشبه بضربات الناقوس المؤذنة بانتهاء معنى معين، أو فكرة معينة. وكل قوافيه في الحربيات هي (المطلقة) عدا حربية واحدة قالها لعضد الدولة، وقد تعمد ذلك كما تعمد استعمال بحر غير ناهض بالحرب فيها، لأنه كما أسلفنا لم يكن متعاطفاً مع مشروع عضد الدولة، وهو مشروع مناهض لمشروعه، فشوه انتصاراته على الواقع بالآلية الموسيقية لوعيه ومكنته في هذا المجال. علما انَّ أغلب قوافيه من نوع المتواتر (وهي التي بين ساكنيها متحرك واحد) وهو المفضل عنده. وقد عمل الشاعر والناقد البصير أبو العلاء المعري إحصائية في القوافي وأنواعها واستعمالاتها في شعر المتنبي فوجد المتواتر يقف في الصدارة، لخفته وسرعته المتأتيين من قصر نغمته التي تبعد عن المتلقي الملل والثقل.

البديع

غلى الرغم من عروبية المتنبي وأصالته الشعرية، الا انه بوصفه عباسيا حضريا مولدا استعمل البديع. غير انه لم يكن يلحّ على البديع، بل يستعمله حين يناسب المقام وتدعو الحاجة، وهذا جعله غير متكلف وعفو الخاطر.

ولما كانت قصيدة الحرب تحتاج الى المزيد من آليات التأثير في المتلقي، ولا سيما ما يطرق الاذن ويقوي طاقة الايحاء، فان هذه الفنون البديعية كثرت في استعمالاته. وفي قصيدة سمندو، وهي من الحماسيات الحربية، نلمس تلك الاليات البديعية:

نـزورُ دِيـاراً مـا نُحِـبُّ لَهـا مَغنـى وَنَسـأَلُ فيهـا غَيـرَ سـاكِنِها الإِذنـا
نَقـودُ إِلَيهـا الآخِـذاتِ لَنـا المَـدى عَلَيها الكُماةُ المُحسِنونَ بِها الظَنّا
وَنُصفي الَّذي يُكنى أَبا الحَسَنِ الهَوى وَنُرضي الَّذي يُسمى الإِلَـهَ وَلا يُكنى
وَقَـد عَلِـمَ الـرومُ الشَـقِيّونَ أَنَّنـا إِذا مـا تَرَكنـا أَرضَـهُم خَلفَنـا عُـدنا
وَأَنّا إِذا ما المَوتُ صَرَّحَ في الوَغى لَبِسنا إِلى حاجاتِنا الضَربَ وَالطَعنا

قَصَدنا لَهُ قَصدَ الحَبيبِ لِقاؤُهُ إِلَينا وَقُلنا لِلسُيوفِ هَلُمّنّا
وَخَيلٍ حَشَونَاها الأَسِنَّةَ بَعدَما تَكَدَّسنَ مِن هَنّا عَلَينا وَمِن هَنّا
ضُرِبنَ إِلَينا بِالسِياطِ جَهالَةً فَلَمّا تَعارَفنا ضُرِبنَ بِها عَنّا
تَعَدَّ القُرى وَالمُس بِنا الجَيشَ لَمسَةً نُبارِ إِلى ما تَشتَهي يَدُكَ اليُمنى
فَقَد بَرَدَت فَوقَ اللُقانِ دِماؤُهُم وَنَحنُ أُناسٌ نُتبِعُ البارِدَ السُخنا
وَإِن كُنتَ سَيفَ الدَولَةِ العَضبَ فيهِمِ فَدَعنا نَكُن قَبلَ الضِرابِ القَنا اللُدنا
فَنَحنُ الأُلى لا نَأتَلي لَكَ نُصرَةً وَأَنتَ الَّذي لَو أَنَّهُ وَحدَهُ أَغنى
يَقيكَ الرَدى مَن يَبتَغي عِندَكَ العُلا وَمَن قالَ لا أَرضى مِنَ العَيشِ بِالأَدنى
فَلَولاكَ لَم تَجرِ الدِماءُ وَلا اللُها وَلَم يَكُ لِلدُنيا وَلا أَهلِها مَعنى
وَما الخَوفُ إِلّا ما تَخَوَّفَهُ الفَتى وَلا الأَمنُ إِلّا ما رَآهُ الفَتى أَمنا

تكرار حرف الروي:

من الأمور المميزة لهذه القصيدة ان المتنبي كرر حرف الروي (النون) في تضاعيف أبيات القصيدة كلها، فما مر بيت من أبياتها الخمسة عشر خالياً من حرف الروي (النون)، حتى تكرر حرف النون في بعض أبيات القصيدة تسع مرات، وتكرار حرف الروي جعل القصيدة طافحة بهذا الصوت الشبيه بصوت الناي المنساب بهدوء وسكون مؤثر يدعو النفس إلى سماعه والارتحال معه والعروج إلى سماء الروح، مما حدا بها الى الخدر والإذعان وهذا ما كان في واقع الحال من استجابة الجند الى داعيها.

وقد تكرر صوت النون في الأبيات، مع حساب أن النون المشددة نونان ساكنة ومتحركة، بالشكل الآتي:

البيت الأول: ست مرات. البيت الثاني: ست مرات. البيت الثالث: خمس مرات. البيت الرابع: سبع مرات. البيت الخامس: خمس مرات. البيت السادس: خمس مرات. البيت السابع: عشر مرات. البيت الثامن: إحدى عشرة مرة. البيت التاسع: ثلاث مرات. البيت العاشر: خمس مرات. البيت الحادي عشر: سبع مرات. البيت الثاني عشر: ثماني

مرات. البيت الثالث عشر: خمس مرات. البيت الرابع عشر: مرتين. البيت الخامس عشر: مرتين. فضلا عن التنوين في كلمات: دياراً، جهالةً، لمسةً، أناسٌ، نصرة، حيث يلفظ التنوين نوناً.

الإكثار من حروف الجر:

وهو مظهر لفظي حتماً، وقد تقصده المتنبي إلى درجة ليم عليه، واتهمه النقاد بأنه ينبع خطى وسنن المتصوفة. ولكن المتصوفة لم تهتم بالشعرية بقدر اهتمامها بإعلان العرفان والحب الالهي، وكانوا ينتهجون الرفض الذي أخذ صورة الكتمان الظاهري والإعلان الباطني، وقد أسفت أشعارهم كثيراً بسبب هذا المظهر اللاشعري، إلا أن المتنبي لشاعريته الفذة استطاع أن يحقق الشعرية مع إكثاره من حروف الجر، كما استطاع أن يتبنى الحكمة والتفكر في شعره دون أن يشف شعره وهذه من فرائد صفات شاعرية وشعرية المتنبي.

وقد حقق المتنبي بإكثاره من حروف الجر غاية أخرى غير شعرية، وهي تحقيق السرعة والحيوية في التعبير دون إرهاق العبارة بألفاظ كثيرة، وأكثر استعماله لهذه الآلية كان في القصائد الحربية التي تتطلب خفة ونغمية عالية، بينما لا نحس بهذا في قصائده الوادعة التي كتبها في مرحلة طلب الراحة والهدنة مع حياة الطموح، وفي هذه القصيدة نجد يستعمل هذه الآلية:

أ- في البيت الأول استعمل حرفي الجر (اللام) في الصدر و(في) في العجز، متصلين بالضمير (ها):

نزورُ دِياراً ما نُحِبُّ (لَها) مَغنى وَنَسأَلُ (فيها) غَيرَ ساكِنِها الإِذنا

وقد حقق المتنبي اختزالا واضحاً باستعمال حرفي الجر مع الضمير دون تكرار الاسم (الديار) التي تعلق بضميرها حرفا الجر، كما حقق إضافة موسيقية ومقابلة نغمية في (لها) و(فيها)، وهو ما قل نظيره في الشعر العربي.

ب- في البيت الثاني وضع أربعة حروف جر وحقق الآلية نفسها التي حققها في البيت الأول، إلا انه وسع وركّب، في قوله:

نَقودُ (إلَيها) الآخِذاتِ (لَنا) المَدى (عَلَيها) الكُماةُ المُحسِنونَ (بِها) الظَنّا

فاستعمل الحروف (إلى) (اللام) في الصدر، و(على) (الباء) في العجز، وكلها اقترنت بضمير؛ ثلاثة بالضمير (ها) وواحد بالضمير (نا). كما عمل تعلقات وارتباطات بهذه الحروف مع الضمائر؛ فتعلق (اليها) بالديار التي ذكرها سابقاً، و(لنا) بالخيول التي اكتفى بصفتها (الآخذات المدى)، وتعلق (عليها) بالخيول التي ذكرها سابقاً، و(بها) بالكماة، فكان التعلق دائما بالسابق في هذا البيت. وقد اتضحت سرعة أدائه بهذه الحروف والضمائر المتصلة، والخفة الموسيقية المتحققة بهذه الآلية.

ت- في البيت السادس استعمل ثلاثة حروف جر، وقد جاء بها منوَّعة (اللام) مرتين و(الى) مرة واحدة، وهما من جنس واحد وقد يستعملان بالتناوب في تأديو معنى واحد، كما نوع (اللام) فاتصلت مرة بالضمير (له) ومرة بالاسم (للسيوف) في قوله:

قَصَدنا (لَهُ) قَصدَ الحَبيبِ لِقاؤُهُ (إلَينا) وَقُلنا (لِلسُيوفِ) هَلُمّنا

وقد جاء هنا التعلق بلاحق بعكس ما جاء به في البيت الثاني.

ث- في البيت السابع يلاحق حروف الجر إلا انه يترك الصدر ويحشِّدها في العجز فقط مستعملا حرف الجر (من) مرتين و(على) مقترنة بـ(نا) ومكررا لفظة (هنَّا) مشددة النون مرتين وجالبا الفعل (تكدسن) المنتهي بالنون، وبهذا فقد حشَّد ثماني نونات في عجز البيت:

وَخَيلٍ حَشَوناها الأَسِنَّةَ بَعدَما (تَكَدَّسنَ)(مِن)(هَنّا)(عَلَينا)(وَمِن)(هَنّا)

وقد احدث هذا التحشيد (النوني) فعله في إبراز التحشد موسيقياً، كما نقل دوي تكرارات النون المتقطعة المستمرة أنين الجيش المعادي الذي توهم جيش سيف الدولة جيشه فانعطف اليه فاثخنه جيش سيف الدولة حشوا بالأسنة والسيوف، وبالتالي أعطت الثقة بالنصر، مما شدّ أزر المقاتلين وهم يقعون تحت تأثير موسيقية النون التي أصبح المتنبي يتحكم بها صعودا ونزولا قوة ولياناً.

ج- في البيت الثامن أوقع أربع نونات، في كل شطر نونين، وقد قابل بين (ضُرِبنَ إلَينا) و(ضربن عنا)، وكرر (الباء) مرة متصلة (بالسيوف) صراحة ومرة متصلة

بضميرها (بها)، فأتم صورة الجيش الذي ضرب بالسياط نحو جيش سيف الدولة، فلما اثخن ضربا وقتلا ضرب بالسياط نفسها هربا من جيش سيف الدولة، وقد أفلح المتنبي في نقل هذا المفارقة الجميلة موسيقياً عبر حروف الجر وضمائرها التي اتصلت بها بخفة أداء رشيقة. وقد أحب المتنبي في هذه النقطة أن يمنح القافية نصيبا من الخفة فجعلها من ضمن حرف الجر وضميره (عنا) وما ما نجده بكثرة في أشعر الجنيد والحلاج وابن الفارض وابن عربي وغيرهم.

وقد تكررت حروف الجر في أبيات أخرى من القصيدة فحققت موسيقى سريعة وخفيفة كانت الأنسب في نقل تفاصيل المعركة المتحركة، كما أنها طريقة المتنبي في امتلاك مستمعه موسيقيا لكسبه ودفعه إلى خوض المعارك وتهوين الحياة بعينه، بعد أن يشرك في الفعل الموسيقي المعاني والصور الحماسية والفكرة التي ترقى إلى حكمة نادرة كالتي انتهت بها القصيدة:

وَما الخَوفُ إِلّا ما تَخَوَّفَهُ الفَتى وَلا الأَمنُ إِلّا ما رَآهُ الفَتى أَمنا

فلا حقيقة للخوف ولا للأمن فهما نسبيان ومتعلقان بما يراه الإنسان؛ فهو الذي يقرر الحالة فيعيش بإحساسه الخوف أو الأمن، وبهذا فهو يفلسف الشجاعة ولا يجعل مجالا للخوف لأنه ينفي أي حقيقة له.

التقسيم الموسيقي والمعنوي:

لم يحفل المتنبي بالجناس في هذه القصيدة، فجاء ما جاء منه ليس بقصدية أدائية. والمتنبي من الشعراء الذي لم يهتموا بالجناس الا قليلا وفي حالات قليلة، ولكنه احتفل بالطباق والمقابلة كثيراً.

وقد استدعى ذلك منه تقسيم العبارة موسيقياً ومعنوياً، وقد ظهر هذا الاحتفال الموسيقي المتأتي من تقطيع الكلام دون الحاجة الى تجنيسه عند شعراء سابقين على المتنبي كابن الرومي، وظهر حتى في النثر بما عرف بالازدواج عند الجاحظ، فعبارته موسيقية مؤثرة الا انه لا يورد من الجناس الا ما جاء عفوا.

في هذه القصيدة نجد قصدية المتنبي بتحريك هذه الآلية الادائية في رسم تحركات التفاصيل التي تبنت القصيدة رسمها وجلاءها. في البيت الثاني تنقسم الكلمات على اربع مجموعات في الصدر تقابلها اربع مجموعات في العجز:

نَقودُ إِلَيها/ الآخِذاتِ/ لَنا/ المَدى عَلَيها الكُماةُ/ المُحسِنونَ/ بِها/ الظَنّا

وكل مجموعة تناظر موسيقياً المجموعة المقابلة. وفي البيت الثالث تقابل (ونصفي الذي) (ونرضي الذي) وتقابل (يكنى) (يسمى):

وَنُصفي الَّذي/ يُكنى/أَبا الحَسَنِ الهَوى وَنُرضي الَّذي/ يُسمى/ الإِلَهَ وَلا يُكنى

وهنا تتحقق المقابلة معنوياً موسيقياً. وفي البيت السابع كان تكرار (من هنا) و(من هنا):

وَخَيلٍ حَشَوناها الأَسِنَّةَ بَعدَما تَكَدَّسنَ /مِن هَنّا/ عَلَينا و/مِن هَنّا/

وهو تكرار أفاد موسيقيا شرح ثقل التكدس برشاقة فائقة، فكانت الموسيقى بحق موسيقى تعبيرية متماسكة مع الفكرة. وفي البيت الثاني عشر أفادت المقابلة بين (فنحن الالى) و(وأنت الذي) التوحد بين القائد والجيش فالجيش لا يقصر في النجدة والقائد مغتن بنفسه، وقد اختار المتنبي لفظة (الالى) دون غيرها لتفيد في التناظر الموسيقي مع (الذي):

فَنَحنُ الأُلى/ لا نَأتَلي لَكَ نُصرَةً وَأَنتَ الَّذي/ لَو أَنَّهُ وَحدَهُ أَغنى

وفي البيت الاخير نجد مقابلات بين (وما الخوف) = (ولا الامن) و التناظر التام (الا ما) = (الا ما) وبقية البيت تقابل في الفكرة (تخوفه الفتى) (رآه الفتى أمنا) كما تكررت الفتى في المقابلتين وهما من ذات الحروف:

وَما الخَوفُ/ إِلّا ما/ تَخَوَّفَهُ الفَتى وَلا الأَمنُ/ إِلّا ما/ رَآهُ الفَتى أَمنا

وبهذا يكون المتنبي قد لجأ، وهو ما يفعله في عامة قصائده، الى آلية المقابلة والازدواج اللفظي لتحقيق موسقة فريدة من نوعها.

وبهذا يتضح لنا ان المتنبي في هذه القصيدة او (نشيد المعركة) أراد أن يحشد طاقات موسيقية كثيرة لتكون لتحقيق الهدف منها وهو امتلاك الجندي ورفع معنوياته وشحذ

بسالته واستثارة أقصى شجاعة فيه، وذلك جنبا الى جنب من مكونات آخرى تخص الفكرة والخيال واللغة وهو ما حققه المتنبي فعلا فكان صوت الرجولة والمحفز للبطولة ومسعر حرب، بقصائد اصبحت أناشيد معارك ناجحة ناجعة كما كانت قصائد عنترة الحماسية تدوي في سوح الجهاد المقدس في معارك وغزوات المسلمين في أراضي المشركين والملاحدة في العراق والشام ومصر وايران والمغرب والاندلس، وحقا كانت قصائد المتنبي في الحماسة بديلا حقيقيا من قصائد عنترة.

ثانيا-- المتنبي مؤرخا

كتب المتنبي شعره بنفَس الشاعر ونفَس المؤرخ؛ فانه عاش في القرن الرابع الهجري، وهو قرن كثرت فيه الحروب، وقويت شوكة الاعداء الخارجيين والداخليين. وصارت الدول تقوم وسرعان ما تزيحها دول تقوم مكانها. ولو راجعنا خارطة البلاد الاسلامية من الشرق الى الغرب، سنجد اختلاف الدول على مناطقها. وهذا استدعى أهمية تسجيل الاحداث، وصار الامير يجد ضالته في المؤرخ والشاعر معا. وكلما أوغلنا في الزمن نجد رجاحة كفة المؤرخ على كفة الشاعر، وكفة التأريخ على كفة الشعر.، ثم انتهى الشاعر الى الاهمال وصار المؤرخ له المنزلة الاولى، ولاسيما زمن الحروب الصليبية، فقد اتخذ الزنكيون (ابن الاثير) مؤرخا لهم، واتخذ صلاح الدين الايوبي (أبو شامة) مؤرخا له. ولو اطلعنا على ما كتب في تحرير القدس، نجد تفاهة الشعر امام ضخامة التدوين التاريخي. كما ان تراجع الشعر جعل الأمراء يطلبون تخليدهم بأقلام المؤرخين وليس قرائح الشعراء الناضبة.

ونحن نجد النفس التاريخي بدأ قبل المتنبي، فنقرأ لابي تمام (٢٣١هـ) والبحتري (٢٨٤هـ) قصائد التاريخية فيها واضحة. وظهرت المطولات التاريخية كمطولة علي بن الجهم (٢٤٩هـ) التي تسمى (الارجوزة المحبرة في التاريخ). ومطولة عبد الله بن المعتز (٢٩٦هـ) التاريخية عن خلفاء العباسيين. ولكن التأريخية عند المتنبي نضجت، وبلغت قمتها، ووضع لها المتنبي نهجها ومفرداتها. وحسبنا الوقوف على بعض تدويناته التاريخية.

سيرته الذاتية: كتب المتنبي سيرته الذاتية بشعره منذ ولادته وحتى ايامه الاخيرة. وقد أفدنا من سيرته كثيرا في هذا الكتاب.

رسم شجرة نسب: يعد رسم شجرات النسب من مهمات علم التاريخ. ونقرأ للمتنبي بيتين يستوفي فيهما شجرة نسب ممدوحه أبي العشائر، وهما:

وَأَنتَ أَبو الهَيجا اِبنُ حَمدانَ يا اِبنَهُ تَشابَهَ مَولودٌ كَريمٌ وَوالِدُ

وَحَمدانُ حَمدونٌ، وَحَمدونُ حارِثٌ وَحارِثُ لُقمانٌ، وَلُقمانُ راشِدُ
أولَئِكَ (أَنيابُ الخِلافَةِ) كُلُّها وَسائِرُ أَملاكِ البِلادِ الزَوائِدُ

فذكر تسلسل العائلة أبناء وآباء وأجدادا، وذكر انهم القوة الحافظة والساندة للخلافة العباسية.

التصوير التسجيلي للمعارك

وكان في حربياته مصورا تسجيليا (Cameraman) لتفاصيل الحروب. وهو برشاقة عباراته وجمالها أفضل من المؤرخين في تدويناتهم التاريخية المطولة المملة. ومن تلك الحربيات التي صورها المتنبي – فكان أبدع في التسجيل من المؤرخين، وأدق في الاخبار– الحرب التي خاضها سيف الدولة مع احد الثوار مدعي الامامة. قال الثعالبي (ظهر رجل من الغرب يعرف بالمبرقع يدعو الناس إلى نفسه، والتفّت حوله القبائل وافتتح مدائن من أطراف الشام، وأسر أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان؛ وهو خليفة سيف الدولة على حمص وألزمه فداء نفسه، فأسرع سيف الدولة يغذّ السير حتى لقيه، وكان ذلك في شعبان سنة (٣٣٧هـ/٩٤٨م).

وفي تدوينه الشعري ذكر أبو الطيب (الفداء) وانه كان من الذهب والخيل، بينما ذكر المؤرخون انه (جملة من المال والخيل) ولكن سيف الدولة أغراه بإعطائه الذهب وأعطاه صدور الخيل؛ أي شن عليه الحرب:

فَدى نَفسَهُ بِضَمانِ النُضارِ وَأَعطى صُدورَ القَنا الذابِلِ

وذكر المتنبي أن الرحلة من حلب إلى حمص استغرقت خمس ليال وليس ثلاثة أيام كما قال الثعالبي. والحق مع المتنبي لان سيف الدولة كان يسير ليلاً ويعسكر نهاراً كي لا يكشف أمره ليباغت العدو، وقد حصل ذلك بالفعل وهو ما يتفق مع رواية المتنبي:

شَفَنَّ لِخَمسٍ إِلى مَن طَلَبنَ قُبَيلَ الشُفونِ إِلى نازِلِ

(شفنَّ) نظرن، و(خمس) يعني ليالي لانها مؤنثة، ولو كانت نهارات لقال لخمسة. أراد أن فرسان هذه الخيل لم ينزلوا عن ظهورها خمس ليال حتى بلغوا أبا وائل وأوقعوا بالذين أسروه، ثم يذكر المتنبي أن مكان الأسر والمعركة حمص:

وَإِن كـــانَ أَعجَـــبَكُم عـــامُكُم فَعـودوا إِلـى حِمـصَ مِـن قابِـلِ

ولم ينس المتنبي ذكر أن الخارجي كان يدَّعي الإمامة، لذلك وصفه بـ(إمام باطل):

وَجَـــيشَ إِمـــامٍ عَلـــى ناقَـــةٍ صَـــحيحِ الإِمامَـــةِ فـــي الباطِـــلِ

وبعد اللقاء أصبحت خيول الخارجي تنهزم من أمام سيف الدولة كما ينهزم النحل أمام يد العاسل (مستخرج العسل):

فَـــأَقبَلنَ يَنحَـــزنَ قُدّامَـــهُ نَـــوافِرَ كَالنَحـــلِ وَالعاسِـــلِ

ويخبرنا المتنبي أن أبا وائل هو الذي راسل الأمير لاستنقاذه، ولكنه يشير إلى إخلاص الأمير في مثل هذه الحالات فهو ينقذ حتى من لا يطلب منه ذلك:

كَـــأَنَّ خَـــلاصَ أَبـــي وائِـــلٍ مُعـــاوَدَةُ القَمَـــرِ الآفِـــلِ

دَعـــا فَسَـــمِعتَ وَكَـــم ســـاكِتٍ عَلـــى البُعـــدِ عِنـــدَكَ كَالقائِـــلِ

وبعد أن أنقذ أبو وائل عاد سيف الدولة إلى حلب، فزانها كما يزين العقد جيد العاطل؛ يشير إلى الاحتفال الذي أقيم في استقبال سيف الدولة مظفراً:

وَعُـــدتَ إِلـــى حَلَـــبٍ ظـــافِراً كَعَـــودِ الحُلِـــيِّ إِلـــى العاطِـــلِ

فهذه قصيدة من قصائد كثيرة كتبها المتنبي بنفس الشاعر المؤرخ.

ومن مظاهر تدوينه التاريخ ذكر أسماء ممدوحيه كاملة، ولم يستعمل شاعر ذلك، ولا هو استعمال شعري، كقوله في بدر بن عمار:

حَـدَقٌ يُـذِمُّ مِـنَ القَواتِـلِ غَيرَهـا (بَـدرُ بـنُ عَمّـارِ بـنِ إِسـماعيلا)

وذكر الاسم الثلاثي للقائد الكردي (دلير بن لشكر آواز) مع صعوبته وطوله:

فَلَستُ غَبيناً لَو شَرَيتُ مَنِيَّتي بِإِكرامِ (دِلَّيرَ بنِ لَشكَرَوَزٍّ) لي

بل ان الغرب حين درسوا المتنبي درسوه مؤرخا لا شاعرا؛ فـ(ماريوس كنار) المؤرخ المشهور الذي اهتم بشعر المتنبي لم تعجبه الروعة الشعرية فيه تلك التي نحسها نحن حين نقرأ شعره، بل كان اهتمامه منصبا لاستنباط حقائق تاريخية، ففي قوله:

أتوك يجرون الحديد كانهم سروا بجياد ما لهن قوائمُ

وجد كنار دليلا على ثقل جيش الفرسان البيزنطيين المسمى بالرومية (scholorioi) ويعني المطارِدين المدججين بالحديد، الذين ركبوا خيولا مستورة القوائم برداء من الدروع يكاد يبلغ الأرض.

ثالثا – المتنبي فيلسوفا

الحكمة عند المتنبي لم تترك صغيرة او كبيرة تخص الناس والحياة الا تناولتها، حتى ان الشخص اذا صادفته في حياته مسألة جوهرية يتساءل: ترى هل قال فيها المتنبي حكمة؟ وسيجد انه قال فيها بالفعل.

قد تحتاج مبلغا معينا لحل مشكلة، ولكن ما يعطيك اياه صديقك ثلاثة ارباعه. فيكون عطاؤه في نظره يستحق الحمد الكبير، ويكون في نظرك لا قيمة له فلا حمد عليه؛ لانه لا يحل المشكلة ويذهب المال سدى. فتذكر قول المتنبي وكأنه مرَّ بالتجربة:

إذا الجودُ لَم يُرزَق خَلاصاً مِنَ الأَذى فَلا الحَمدُ مَكسوباً وَلا المالُ باقِيا

ولن تجد أقبح من شخص يكرم صديقه، وصديقه يحسده على ماله الذي يكرمه به، وهو ما قاله المتنبي:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لِمَن باتَ في نَعمائِهِ يَتَقَلَّبُ

ونقول لمن يقابل احساننا بإساءة:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

وكثيرا ما نرى تافها مغرورا ليس له مقومات الفخر الا المال أو شبيهه، فنقول ان هذا المغرور لو يرى نفسه بعيون الناس لكف غروره، فيصدق عليه قول المتنبي:

وَمَن جَهِلَت نَفسُهُ قَدرَهُ رَأى غَيرُهُ مِنهُ مالا يَرى

وكلنا أو أغلبنا ردد في حسرة قول المتنبي بعد فشل أمل أو طموح:

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه تجري الرّياح بما لا تشتهي السفنُ

وفعلا كما قال المتنبي ان أتعب الناس الذي له طموح عريض وامكاناته ضئيلة:

وأتعب خلق الله من زاد همّه وقصّر عما تشتهي النفس وُجدّه

وأين ما تذهب يردد الشيخ الكبير والشاب الصغير حكمة أصبحت مسلّمة، وهي ان الحياة محسومة النهاية ولا سبيل الى البقاء، وهي في حكم المتنبي:

كَثيرُ حَياةِ المَرءِ مِثلُ قَليلِها يَزولُ، وَباقي عَيشِهِ مِثلُ ذاهِبِ

وكم احتاج الاوائل، وكم يحتاج التوالي أن يعللوا أنفسهم عن شيء تمنوه بشدة ففاتهم أن ينالوه، ومنهم من عاش هذا الالم وهو يموت وادرك انه ميت دونه. ولعلهم لو قرؤوا حكمة المتنبي بذلك لتعللوا ولو بقدر، وهي:

هَوِّن عَلى بَصَرٍ ما شَقَّ مَنظَرُهُ فَإِنَّما يَقَظاتُ العَينِ كَالحُلُمِ

أي هوّن عليك اذا لم تدرك شيئا اردته وفاتك، فكل ما رأته العين فقدته واصبح حلما منسيا.

وقد تقول قولا حكيما فيعيبك عليه الجاهل مستهزئا لانه لم يفهمه! وقد ردد المتنبي ذلك في غير حكمة:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيمِ

وَمِنَ البَلِيَّةِ عَذلُ مَن لا يَرعَوي عَن غَيِّهِ، وَخِطابُ مَن لا يَفهَمُ

وفي الحياة تأتي مصائب كثيرين لصالح آخرين:

بِذا قَضَتِ الأَيّامُ مابَينَ أَهلِها مَصائِبُ قَومٍ عِندَ قَومٍ فَوائِدُ

وأمثلة حكم المتنبي وتطبيقها في الناس والحياة لا تعد ولا تحد.

وأكثر مجال صنع فيه المتنبي حكمته هو موضوعه الاول (الحماسة). فقد وظفها من اجل دفع الناس الى طلب المجد، والى الشجاعة والاقدام في الحرب، وعدم تهيب الموت، والجبن عن ملاقاته. ومدح العزيز وذم الذليل.

مَن يَهُن يَسهُلِ الهَوانُ عَلَيهِ ما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ

ذلّ من يغبط الذليل بعيش ربّ عيش أخف منه الحمامُ

كلّ حلم أتى بغير اقتدار حجّة لا جيء إليها اللئامُ

وقال دفعا للناس الى الطموح الاعلى: انك اذا متَّ لاجل قضية صغيرة فطعم الموت لا يختلف عنه في قضية كبيرة، فاطلب المجد الاعلى ولا تبال بالموت:

إذا غامرت في شرفٍ مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمرٍ صغير كطعم الموت في أمرٍ عظيم

وفي بيتين فقأ فيهما عين فلسفة الموت، يفلسف المتنبي الجبن والشجاعة. فيقول ان سبب الجبن او الخوف من الموت هو إلفنا طيب هذا الهواء الذي أقنعنا بأن الموت مر وهو ليس كذلك. أما الانسان فعليه اجتياز حاجز الموت الرقيق وينتهي كل شيء. وان الخوف من الموت قبل وقوعه ضعف، وهذا الخوف يزول تلقائيا بعد عبورك الحاجز:

إِلفُ هَذا الهَواءِ أَوقَعَ في الأَنفُسِ أَنَّ الحِمامَ مُرُّ المَذاقِ
وَالأَسى قَبلَ فُرقَةِ الروحِ عَجزٌ وَالأَسى لا يَكونُ بَعدَ الفِراقِ

وقد علق المعري على هذين البيتين بقوله (انهما يعدلان كتابا من كتب الفلاسفة).

وأبيات حكم المتنبي مبثوثة في تضاعيف قصائده على طريقة العرب، غير متسلسلة على طريقة العجم، كشعر صالح بن عبد القدوس، ومثل مزدوجة أحمد بن محمد السكري المروزي التي ترجم فيها أمثال الفرس. غير انه كتب في مصر في غفوة تأملية قصيدة متسلسلة الحكمة، قال فيها:

صَحِبَ الناسُ قَبلَنا ذا الزَمانا وَعَناهُم مِن شَأنِهِ ما عَنانا
وَتَوَلَّوا بِغُصَّةٍ كُلُّهُم مِنهُ وَإِن سَرَّ بَعضُهُم أَحيانا
رُبَّما تُحسِنُ الصَنيعَ لَياليهِ وَلَكِن تُكَدِّرُ الإِحسانا
وَكَأَنّا لَم يَرضَ فينا بِرَيبِ الدَهرِ حَتّى أَعانَهُ مَن أَعانا
كُلَّما أَنبَتَ الزَمانُ قَناةً رَكَّبَ المَرءُ في القَناةِ سِنانا
وَمُرادُ النُفوسِ أَصغَرُ مِن أَن نَتَعادى فيهِ وَأَن نَتَفانى
غَيرَ أَنَّ الفَتى يُلاقي المَنايا كالِحاتٍ وَلا يُلاقي الهَوانا
وَلَوَ أَنَّ الحَياةَ تَبقى لِحَيٍّ لَعَدَدنا أَضَلَّنا الشُجعانا
وَإِذا لَم يَكُن مِنَ المَوتِ بُدٌّ فَمِنَ العَجزِ أَن تَكونَ جَبانا
كُلُّ ما لَم يَكُن مِنَ الصَعبِ في الأَنفُسِ سَهلٌ فيها إِذا هُوَ كانا

رابعا- المتنبي جغرافيا

المتتبع لحياة المتنبي يتبين له انه كان معنياً بالجغرافية، رحالة قتل البلدان خُبراً؛ وان حب التنقل فيه طبع ثابت وخُلُق راتب؛ إذ كانت حياته حصيلة أسفار وتنقلات (فمنذ أن برح الكوفة وهو على سفر وحتى قتل وهو عائد من سفر). وإذا أردنا أن نرسم خارطة لتنقلاته، وجدناها تشمل رقعة واسعة فهي (من بادية الشام جنوبا إلى الأناضول شمالا، ومن القاهرة غربا إلى شيراز شرقاً). وكل هذا اعطاه خبرة واسعة في معرفة البلدان والامكنة. جاء في (الواضح) حين حصل في مجلس الوزير المهلبي جدال حول (جرام) اسم موضع، قال المتنبي (هو جراب) وهذه أمكنة قتلتها خُبراً.

تفترش الجغرافيا ديوان المتنبي، ففي معجم البلدان يتكرر اسم المتنبي لتوثيق أسماء (٤٨) موضعا لجبال وأمكنة ومياه ذكرها المتنبي في شعره. والمتنبي يؤكد جغرافيته في شعره كما في قوله: (كأَنّي دَحَوتُ الأَرضَ مِن خِبرَتي بِها). وفضلا عن اسماء المواضع المبثوثة في شعره، توجد قصيدة كاملة في الجغرافية؛ وهي (المقصورة) التي ذكر فيها بالتفصيل الاماكن التي مرَّ بها هاربا. وقد أخفى المتنبي آثاره فلم يأخذوا له أثرًا حتى قال بعض أهل البادية (هبه سار فهل محا أثره)! وقال بعض المصريين: (إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض)!! وتبعته البادية والحاضرة ومن وثقوا به من الجند ، وكتبوا إلى عمالهم بالحوفين والجفار وغزة والشام وجميع البوادي، دون أن يصلوا اليه. وهذه الرحلة الشاقة الصعبة تدلل على شجاعة منقطعة النظير، ومعرفة منقطعة النظير بالجغرافية آنذاك، وصدق عندما قال في مجلس الوزير المهلبي (تلك اماكن قتلتها خُبراً)، وكتبها في الكوفة.

يقول المتنبي في مقصورته الجغرافية:

أَلا كُلُّ ماشِيَةِ الخَيزَلى فِدا كُلُّ ماشِيَةِ الهَيذَبى

وكل نجـــاة بجاويـــــــة خَنوفٍ وَما بِيَ حُسنُ المِشى

وَلَكِنَّهُنَّ حِبالُ الحَياةِ وَكَيدُ العُداةِ وَمَيطُ الأَذى

ضَرَبتُ بِها (التيهَ) ضَربَ القِمارِ إمّا لِهَذا وَإمّا لِذا
إذا فَزِعَت قَدَّمَتها الجِيادُ وَبيضُ السُيوفِ وَسُمرُ القَنا
فَمَرَّت بِـ(نَخلٍ) وَفي رَكبِها عَنِ العالَمينَ وَعَنهُ غِنى
وَأَمسَت تُخَيِّرُنا بِـ(النِقابِ) (وادي المِياهِ) وَ(وادي القُرى)
وَقُلنا لَها أَينَ أَرضُ العِراقِ فَقالَت وَنَحنُ بِـ(تُربانَ) ها
وَهَبَّت بِـ(حِسمى) هُبوبَ الدَبورِ مُستَقبِلاتٍ مَهَبَّ الصَبا
رَوامي (الكِفافِ) وَ(كِبدِ الوِهادِ) وَجارِ (البُوَيرَةِ) (وادِ الغَضى)
وَجابَت (بُسَيطَةَ) جَوبَ الرِداءِ بَينَ النَعامِ وَبَينَ المَها
إلى (عُقدَةِ الجَوفِ) حَتّى شَفَت بِـ(ماءِ الجُراوِيِّ) بَعضَ الصَدى
وَلاحَ لَها (صَوَرٌ) وَالصَباحَ وَلاحَ (الشَغورُ) لَها وَالضُحى
وَمَسّى (الجُمَيعِيَّ) دِئداؤُها وَغادى (الأَضارِعَ) ثُمَّ (الدَنا)
فَيا لَكَ لَيلاً عَلى (أَعكُشٍ) أَحَمَّ البِلادِ خَفِيَّ الصُوى
وَرَدنا (الرُهَيمَةَ) في جَوزِهِ وَباقيهِ أَكثَرُ مِمّا مَضى
فَلَمّا أَنَخنا رَكَزنا الرِماحَ فَوقَ مَكارِمِنا وَالعُلا
وَبِتنا نُقَبِّلُ أَسيافَنا وَنَمسَحُها مِن دِماءِ العِدا

فحسب القصيدة وبعض الاخبار النادرة عن رحلته، عبر أبو الطيب من (نجة الطير) إلى (الرثنة) حتى وصل إلى ماء يعرف بـ(نخل) في التيه بعد أيام. وسار حتى قرب من (النّقاب)، وسار حتى توسط بيوت بني سُليم آخر الليل، فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له، وغدا فسار إلى (النقع)، فنزل ببادية من معن وسُنبُس. فذبح له عفيف المعنيّ غنماً وأكرمه، وغدا من عنده وبين يديه شخصان من جُذام يدلانه في الطريق. فصعد في النقب المعروف بـ(تربان)، فسار يومه وبعض ليلته ، ونزل وأصبح فدخل حِسْمى. وطابت حِسمى لأبي الطيب ، فأقام بها شهرًا ، ثم أخذ طريق (البياض) ، فلما صار بـ(رأس الصوان) أنفذ فليتة بن محمد إلى عرب بين يديه،

وتوقف. وسار أبو الطيب حتى نظر إلى آثار الخيل . ولم يجد فليتة خبراً عن العرب التي طلبها . فقال له: اخرق إلى (دُومة الجندل)، فسار حتى انحدر إلى (الكفاف)، فورد (البويرة) بعد ثلاث ليال، فلما توسط بُسيطة (وهي أرض تقرب من الكوفة (رأى بعض عبيده ثوراً يلوح ، فقال : هذه منارة الجامع . ونظر آخر إلى نعامة في جانبها الآخر فقال: وهذه نخلة. فضحك أبو الطيب، وضحك من معه. وورد (العقدة) بعد ليال ، وسقى من (الجراوي)، واجتاز ببني جعفر بن كلاب. وهم بـ(البريت والأضارع) ، فبات فيهم، وسار إلى (أعكش) حتى ورد (الرُهيمة) ودخل (الكوفة).

وهذه خريطة المتنبي من مصر الى الكوفة رسمها الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع أحد علماء اللغة والأدب في السعودية.

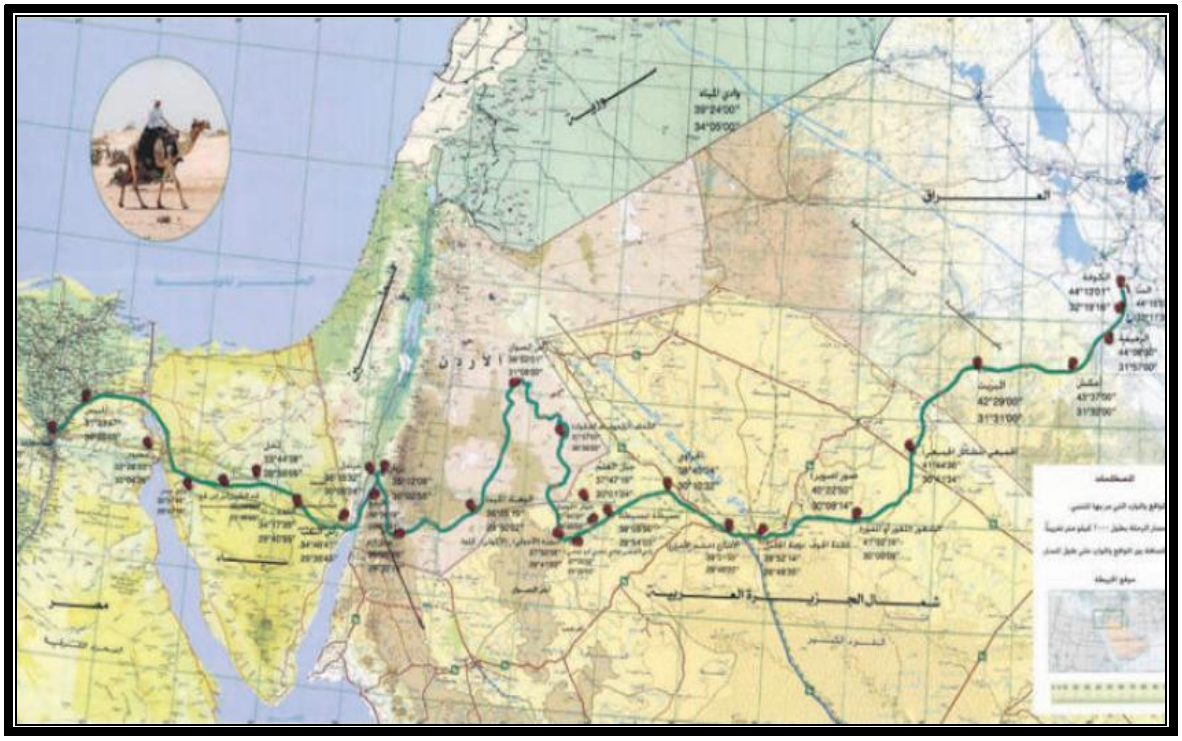

الفهرست

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
المقدمة	٧
القسم الاول- المتنبي الشاعر	٩- ٧٨
ملخص	١١
عائلته	١٧
المتنبي والمرأة	٢١
طموحه	٢٤
مراحل طموحه	٢٧
المرحلة الاولى- الشعر والثورة	٢٨
المرحلة الثانية- البحث عن قائد	٣١
المرحلة الثالثة – طرحه نفسه القائد	٣٤
انقلاب في مصر	٣٦
المرحلة الرابعة- العودة الى الشاعر	٣٨
مذهبه	٤٣
لقبه	٤٩
أخلاقه وصفاته	٥٣
المآخذ على المتنبي	٦٠
مقتل المتنبي	٦٢
رثاء المتنبي	٧٢
قبر المتنبي	٧٥
القسم الثاني- الشعر	٧٩- ١١٩
ملخص	٨١
القالب الشعري	٨٥
الشعراء المتنبي	٨٦

أولا- المتنبي شاعرا	**٨٦**
ضفاف الشعر الثلاث	٨٦
ضفة الالفاظ	٨٦
ضفة المعاني	٨٩
تناصات المتنبي العالمية	٩١
أولا- المتنبي وشكسبير	٩١
ثانيا- المتنبي وسرفانتس	٩٣
ثالثا- المتنبي والخرافة الاوربية	٩٤
رابعا- المتنبي والخرافة العالمية	٩٥
خامسا- المتنبي ونيتشه	٩٧
ضفة الموسيقى	٩٩
البديع	١٠٣
تكرار حرف الروي	١٠٤
الاكثار من حروف الجر	١٠٥
التقسيم الموسيقي والمعنوي	١٠٧
ثانيا - المتنبي مؤرخا	**١١٠**
المتنبي فيلسوفا	**١١٤**
المتنبي جغرافيا	**١١٧**